منهج التحليل النصي في تفسير العهد الجديد
من خلال النظرية البنيوية عند رولان بارت
-سفر أعمال الرسل أنموذجا-

الطالب الدكتور: محمّد أسامة بن عطاء الله
مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: قسنطينة- الجزائر

مقدمة:

شهد الفكر الغربي ولا يزال تطورا وتقلبات فكرية كبيرة في مختلف الحقول المعرفية، وعرف ولادة مناهج جديدة في شتى الميادين البحثية، جاءت بنتائج مغايرة للكثير مما كان سائدا خلال فترات طويلة من تاريخ المعرفة الإنسانية، وقد لاقى بعضها استحسانا نتيجة تلائمه مع طبيعة بعض التخصصات ولما أثرى به نتاجها وأدواتها البحثية، بينما لاقى بعضها معارضة شديدة بسبب تضاربها مع الأيديولوجيات والتوجهات الفكرية وخاصة اللاهوتية، ويعتبر النص الديني أحد المظاهر التي تؤكد ذلك، فقد كان يمثل الركيزة الأساسية في الفكر اللاهوتي المسيحي، وتفسيره كان خاضعا لسلطة المؤسسة الدينية وما تحدده من أدوات ومناهج و طرق للتحليل والتأويل، لكن التطور الذي شهدته العلوم الإنسانية والإجتماعية وبالخصوص تلك الثورة المنهجية التي طرأت على ميادين الدراسات الأدبية والألسنية واللغوية، والإهتمام باللغة الإنسانية ورموزها وأشكال الأصوات، قد ألقى بظلاله على الدراسات التفسيرية للكتاب المقدس التي حاول من خلالها بعض رواد الفيلولوجيا والتفكيكية

والسيميولوجيا..إلخ، من المدارس الأدبية اقتحام ميدان اللاهوت باعتبار أن السلطة الكنسية قد زالت بظهور عصر التنوير ولا شيئ يحجر على عقل الإنسان من أجل فهم المقصود من هذه الكتب خارج الفهم الذي أحاطت المذاهب اللاهوتية نوصوصها الدينية، وتعتبر البنيوية كنظرية معرفية وفكرية جديدة في عالم الفكر واحدة من المنهاج التي اقتحمت ميدان تفسير النصوص الدينية، والتي شكلت الموضة الفكرية لمنتصف القرن العشرين، وتنبأ لها الكثيرون بالنجاح الباهر ونظروا إليها نظرة ميسيانية وكأنها الخلاص من الغلافات التي غلفت بها الكثير من النصوص في مختلف فروع المعرفة الإنسانية كالفلسفة والأدب واللاهوت...إلخ؛ فكانت بمثابة انقلاب كوربنيكي على التوجهات الفكرية السابقة، ويسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على النظرية البنيوية وإقدامها على ولوج عالم اللاهوت ودراسة النص الديني، اعتمادا على المفكر الفرنسي والبنيوي"رولان بارت"، الذي قام بدراسة تطبيقية أسقط من خلالها مجموعة من الخطوات والآليات والقواعد البحثية التي استفادها من جهود سابقيه، ومما نظّر له بنفسه محاولا تشكيل فرع معرفي جديد يهتم بالنص الديني الذي يرى بأنه يحمل الكثير من المحكيات، أو القصص، ولهذا ف"بارت"بإقدامه على هذا النوع من الدراسة كان يهدف إلى شيئ أكبر من تفسير للنص أو شرح له، وإنما نحو التقعيد والتنظير لعلم جديد ومنهج بحثي جديد يسعى إلى دراسة بنية النص، ألا وهو علم السرد، أو التحليل البنيوي للسرد أو المحكي أو القصصي، وهذا ما سنعرضه في هذا البحث.

ويكتسي هذا الموضوع غاية في الأهمية نظرا لجدية هذه النظرية في حقل الدراسات الدينية ولمحاولة التعرف على هذا الفرع المعرفي الجديد وهدفه من الاهتمام بالمرويات والمحكيات التي تتضمنها النصوص الدينية، ونظرا إلى الأثر الفلسفي الذي تركته البنيوية على الفكر الحديث في مختلف المجالات المعرفية، فهي ذات راهنية، وخاصة وبحكم أنها تضم كبار المفكرين على غرار "كلود ليفي ستروس، لاكان، ميشال فوكو، ألتوسير، بارت...الخ"، وهي أسماء لامعة في تاريخ الفكر الغربي، وللإطلاع على جدية هذه النظرية وقدرتها في بحث النص الديني وقوتها التفسيرية وصلابتها المعرفية.

وقد سعينا إلى دراسة هذا الموضوع من خلال مجموعة من الإشكاليات هي: ما هي النظرية البنيوية الأدبية؟ هل هي منهج قائم بحد ذاته أم أنها مجرد طريقة في البحث؟ما الهدف الذي يسعى إليه بارت بتبنيه للبنيوية؟هل يريد تفسير النص الديني وشرحه أن يحاول الوصول إلى هدف آخر؟ما المقصود بعلم التحليل البنيوي للسرد؟هل يصلح الكتاب المقدس للدراسة الأدبية وهل يحمل بنية أدبية؟ما

هي الخطوات والأدوات المنهجية التي يمكن درس النص المحكي لدى بارت؟هل خرج بنتائج معرفية أثبتت نجاعة نظريته أم أنه أقر بفشلها؟ وفي طيات هذا البحث سيعثر القارئ عى إجابات عن هذه التساؤلات.

في هذا البحث نهدف إلى التعريف النظرية الأدبية البنيوية وجهود بارت في دراسة النصوص الدينية، إلا ان هذا البحث يتم بالقصور والمحدودية نظرا إلى أنه يدرس جزئية صغيرة حول تطبيقات أدوات علم السرد على نص اعمال الرسل المتخذ كأنموذج للبحث، وهذا حسبما عرضه بارت نفسه، لأن البحث الموسع لبارت في مجال الدراسة البنيوية للنصوص الدينية قد كتب في اللغة الفرنسية بعنوان Analyse structurale et exégèse biblique-essais d'interprétation إلا أننا لم نستطع الحصول عليه للأسف الشديد، فهذا البحث يمكن اعتباره مجرد تمهيد وتقديم لبحث موسع ومطول يحتاج إلى الكثير من التفصيل والجهد، وبالتالي فالهدف الرئيسي هو التعريف السريع لهذا المشروع المعرفي الجديد وهو علم السرد البنيوي، كما ينبغي أن نشير أننا تناولنا هذا البحث من زاوية نظر أدبية ألسنية محضة حاولنا ان نضفي عليها صبغة التخصص إلا أن انعدام المراجع والمصادر في هذا الموضوع حسب حدود بحثنا المتواضع لم يسمح لنا بذلك.

وقد قمنا بتناول هذا البحث على مبحثين، قسمنا فيه الأول إلى أربعة مطالب تم فيه التعريف بالبنيوية، ثم عن انتقالها من من اللسانيات إلى العلوم الإنسانية والإجتماعية واللاهوت، ثم عرضا عاما وشاملا للمشروع المعرفي الجديد الذي جاء به بارت وهو علم التحليل البنيوي للسرد او المحكي.أما المبحث الثاني فقد كان تطبيقيا تناولناه في أربعة مطالب، عرضنا فيها الخطوات المنهجية والأدوات والآليات والإجراءات التي يتم بها قراءة نص المحكي، ومن ثم قمنا بالحديث عن التطبيق الذي قدمته واسقطه بارت على نص أعمال الرسل واستخراجه لأهم البنى المشكلة له، وختمناه بتقييم ونقد لما قدمه انطلاقا من وجهة المختصين في اللسانيات و تقييم بارت لنفسه.

هذا وقد لاقى بحثنا الكثير من الصعوبة بسبب عدم حصولنا على المراجع الفرنسي الذي يشتمل على العمل الموسع للدراسة البنيوية في تحليل النصوص الدينية، وكذلك صعوبة المصطلحات الألسنية والأدبية والتعقيد الذي تتسم به الكثير من المحطات المنهجية، ولتشعب البنيوية بين مختلف الفروع المعرفية، فحتى في الحقل المعرفي الواحد كالأدب على سبيل المثال تجد فيه تفرعات وتفصيلات كثيرة جعلتنا نركز على المهم مما يخدم طبيعة موضوعنا ولم نرد الإغراق في الجانب التاريخي

والفلسفي بسبب ارتباط البنيوية بفكر الحداثة وما بعد الحداثة وإعلان موت الإنسان وغيرها من كبريات النظريات المعرفية داخلها.

وفي الأخير نامل ان نكون قد قدمنا لمحة موجزة حول هذا المشروع المعرفي الكبير، وأن يشكل مدخلا نحو بحث يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد والقراءات الموسعة والمطولة، ونرجو ان يعذرنا المختصون في اللسانيات والنقد الأدبي لما يجدونه من عموميات وإشارات سريعة وذلك راجع بطبيعة الحال إلى الزاوية التي درسنا بها هذا الموضوع.

هذا وإن وفقنا فمن الله وحده، وإن أخطأنا فهي الجبلة البشرية والقصور الإنساني.

المطلب الأول: مفهوم النظرية البنيوية:

كان لظهور البنيوية كمنهج بحثي في الساحة الفكرية الغربية أثر كبير على مختلف الحقول المعرفية في العلوم الإنسانية والإجتماعية، وقد تعددت طرق توظيفها تبعا لاختلاف زوايا النظر والدراسة من جهة، والأدوات التحليلية المطبقة والأيديولوجيات التي تحكمها، مما أدى بالضرورة إلى اختلاف وتنوع النتائج، كما أن البنيوية شهدت إقبالا كبيرا وتظيفا واسعا في شتى المجالات كالأنثروبولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والنقد الأدبي...إلخ، ولعل أبرز نقطة نود الحديث عنها فهم البنيوية يقتضي بالضرورة الإطلاع والإلمام الواسع بالتحولات الفكرية والمنهجية التي حدثت في الفكر الغربي عموما، والمعرفة الدقيقة بمختلف المناهج والمدرس التي قامت بدراسة الكتاب المقدس وشروحه، وانتقال المناهج الأدبية إلى حقل اللاهوت خصوصا، وليس هذا غرضنا في هذا البحث، ومع ذلك سنحاول أن نشير إلى ذلك باختصار وجيز، كما ينبغي أن نؤكد على أهمية تجاوز عقبة فهم المصطلح وضبطه من حيث التعريف والماهية بحكم أنها أول العوائق التي تواجه أي باحث، ونظرا إلى التشعب الكبير للبنيوية واختلاف تعاريفها باختلاف التخصصات، وبما أن موضوعنا يندرج ضمن حقل الدراسات الأدبية، فإننا سنعمل على تقديم تعريفات شمولية تحاول جمع رؤية مختلف الحقول المعرفية لدى كبار المفكرين المتبنين لها، على أن نختمها بتعريفات المختصين في النقد الأدبي واللسانيات الذين قاموا بتوظيفها هم كذلك، وذلك من أجل وضعها في سياقها التاريخي وإبراز خصائصها، وتماشيا مع هدف البحث ومساره، دون الإغراق في التفاصيل التاريخية والمعالم التي تزداد تعقيدا وتفرعا مع ظهور المدارس الجديدة، وعن تعدد التوظيف المنهجي للبنيوية لدى كبار المنظرين في شتى حقول المعرفة الإنسانية، يقول "زكريا ابراهيم" عن التنوع التطبيقي لها في الفكر

الفرنسي نقلا عن"جيل دولوز" ما يلي: "توجد سمات مشتركة تجمع بين كل المنتسبين إلى الحركة البنيوية، ومن بينهم"ياكبسون"العالم اللغوي، و"ليفي ستروس"عالم الاجتماع، و"لاكان"المحلل النفسي، و"فوكو"الفيلسوف المجدد للإبستيمولوجيا، و"ألتوسير"الفيلسوف الماركسي الذي أخذ على عاتقه معاودة تفسير الماركسية، و"بارت"الناقد الأدبي..الخ، وفي مقدمة هذه السمات...المناداة بنزعة مادية جديدة لا تكاد تنفصل عن اتجاه جديد معارض تماما كل نزعة إنسانية..الخ، ولسنا الآن بصدد حصر السمات العامة المشتركة بين البنيويات المختلفة من ريضاضية-منطقية، وفيزيائية بيولوجية، وسيكولوجية، ولغوية، واجتماعية..الخ، وإنما حسبنا أن نقول مع "جان بياجي" أن للبنيويات جميعا مثلا أعلى واحدا مشركا في المعقولية، ألا وهو النظر إلى البنية باعتبارها نظاما مكتفيا بذاته، لايحتاج في إدراكه إلى الإهابة بأي عناصر أخرى تكون غريبة في طبيعتها عليه". [1]ولعل هذا التشعب هو ما كان سببا في اتسام البنيوية بصفة التعقيد وجعلها من"أصعب المناهج الحديثة وأدقها وأكثرها جفافا، وأبعدها عن المصطلحات والتصورات التقليدية" [2]، وهذا التشعب والتعقيد مس حتى التعريفات التي عرفت بها البنيوية، إذ أن الباحث سيتعب من أجل إيجاد تعريف مانع جامع لها، يحدد المعالم والملامح العامة للنظرية.، إذ"واجه تحديد مصطلح البنية مجموعة من الإختلافات ناجمة عن تمظهرها وتجليها في أشكال متنوعة لا تسمح بتقديم قاسم مشترك" [3].ويكفينا هذا البيان الذي نراه ضروريا قبل الدخول في عرض مفهوم البنيوية حتى يتهيأ القارئ لثقل المفاهيم وصعوبة المصطلحات وتركيزها.

وقبل تناول المفهوم الاصطلاحي تقتضي منا الضرورة المنهجية أن نبين الأصل اللغوي للبنيوية، "فكلمة البنية تشتق في اللغات الأوروبية من الأصل اللاتيني stuere الذي يعني: البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى ما، ثم امتد مفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما من وجهة النظر الفنية المعمارية، وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي، وتنص المعاجم الأوروبية على أن فن المعمار يستخدم هذه الكلمة منذ منتصف القرن السابع عشر"[4]، ويضيف"صلاح فضل"قائلا عن تدرج

1- زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، ج8، دط، (مصر، دار مصر للطباعة، دس)، ص26-27.

2- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط1 (القاهرة، مصر، دار الشروق، 1419هـ-1998م)، ص 12.

3- ثامر إبراهيم محمد المصاروة ، البنيوية بين النشاة والتاسيس، دراسة نظرية، غير منشور، ص10.

4- نظرية البنائية في النقد الأدبي، مرجع سابق، ص120.

استخدام المصطلح من الوضوح إلى التعقيد قائلا: "ويتميز الإستخدام القديم لكلمة البنية في اللغات الأوروبية بالوضوح، فقد كانت تدل على الشكل الذي يشيد به مبنى ما، ثم لم تلبث أن اتسعت لتشمل الطريقة التي تتكيف فيها الأجزاء لتكون كلاما سواء كان جسما حيا أو معدنيا أو قولا لغويا، ...وعلى هذا الأساس فإن البنية هي ما يكشف عنها التحليل الداخلي لكلٍ ما، والعناصر والعلاقات القائمة بينها ووضعها، والنظام الذي تتخذه، ويكشف هذا التحليل عن كل العلاقات الجوهرية والثانوية... ولهذا فتعريف البنية عموما بأنها كل مكون من ظواهر متماسكة، يتوقف كل منها على ما عداه، ولا يمكنه أن يكون ما هو إلا بفضل علاقته بما عداه" [1]، فهي إذا تهتم بالبحث في ظواهر مركبة، وانطلاقا من هذه الفكرة نحاول عرض المعنى الإصطلاحي لها ومنهجنا في ذلك هو التعميم وعدم الخوض في التفاصيل التاريخية، والتركيز على أهم شخصية علمية في مجال معرفي لننهي هذا المطلب بالتعريف الأدبي باعتباره ركيزة البحث.

يعرفها"مصطفى حسيبة "في معجمه الفلسفي بالقول: "هي منهج فكر نقدي مادي ملحد غامض، يذهب إلى أن كل ظاهرة إنسانية كانت أو أدبية تشكل بنية لا يمكن دراستها إلا بعد تحليلها إلى عناصرها المؤلفة منها، ويتم ذلك دون تدخل فكر المحلل أو عقيدته الخاصة، ونقطة الإرتكاز في هذا المنهج هي الوثيقة، فالبنية لا الإطار هي محل الدراسة، والبنية تكفي بذاتها ولا يتطلب إدراكها اللجوء إلى أي عنصر من العناصر الغريبة عنها، وفي مجال النقد الأدبي، فإن الإنفعال أو الأحكام الوجدانية عاجزة عن تحقيق ما تنجزه دراسة العناصر الأساسية المكونة لهذا الأثر، ولذا يجب فحصه في ذاته من أجل مضمونه وسيقه وترابطه العضوي، والبنيوية بهذه المثابة تجد أساسها في الفلسفة الوضعية لدى "كونت"، وهي فلسفة لا تؤمن إلا بالظواهر الحسية".[2]وهو يؤكد في هذا التعريف من وجهة نظرنا على أمرين: مادية المنهج ووضعانيته من جهة، وعدم اهتمام البنيوية بالعناصر البرانية الخارجية عن الظاهرة أو النص ولا بالسياق التاريخي لتكونه.

واتخذ "أندري لالاند" من البنيوية النفسية أنموذجا له في تعريفه لها بالقول: "هو العلم الذي يعتمد منهج تحليل الظواهر النفسانية إلى عناصرها: أحاسيس، خيالات، نزعات، ...الخ، إلى تحديد أبعادها: كثافة، توتر، ديمومة، إن النفسانيات البنيوية تحليلية، فهي تصب أنظارها على تركيب

1- المرجع نفسه، ص 120-121.

2- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، ط1، (عمان، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2009)، ص 116.

المسارات العقلية والمقصود بها هو إجراء عملية عقلية في نشاط ما ، حول تقنية هذا النشاط، وهي تهتم بكيفية الظواهر، بكيف آلاتها أو أجهزتها الجوانية".[1]

أما "جان بياجي" فيتبنى في كتابه"البنيوية 1968" تعريفا لها أشد قوة تركيزا وتعقيدا بقوله: "البنية هي نظام تحولات، وتصان أو تغتني بتفاعل قوانين التحويل الخاصة بها، والتي لا تؤدي إلى أي نتائج خارجية بالنسبة للنظام، ولا تستخدم عناصر خارجية بالنسبة له، باختصار فإن تصور البنية يشتمل على ثلاثة أفكار أساسية: فكرة الكلية، فكرة التحويل، وفكرة التنظيم الذاتي" .[2]ويعلق على هذا التعريف "زكريا ابراهيم" يشرح من خلال هذه الأسس الثلاثة نحاول أن نوجه باختصار، فالكلية تعني أن البنية تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن الكل، بل هي تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق، من حيث هو نسق، فالمهم هو في البنية العنصر أو الكل وإنما العلاقات القائمة بين العناصر، أي عمليات التأليف أو التكوين باعتبار أنَّ الكل ليس إلا الناتج المترتب على تلك العلاقات.أما التحولات فالمقصود بها هو أن تلك المجاميع الكلية تنطوي على ديناميكية ذاتية تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنة التي تحدث داخل النسق أو المنظومة خاضعة في الوقت نفسه لقوانين البنية الداخلية دون التوقف على أية عوامل خارجية، أما التنظيم الذاتي فيعني قدرة البنيات على تنظيم نفسها بنفسها، مما يحفظ لها وحدتها وبقائها.[3]

ويعرفها "جون ستروك"بأنها: "طريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل معين من حقول المعرفة بحيث تخضع هذه المعطيات فيما يقول البنيون للمعايير العقلية" [4]، وهو يشير إلى أنها طريقة في البحث ولم يتعسمل كلمة منهج، وقد أثارت هذه المسألة الكثير من الحبر، وسنتاول

1- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل احمد خليل، إش: أحمد عويدات، ج1، ط2، (بيروت، بارس، منشورات عويدات، 2001) ، ص340.

2- ليونارد ياكبسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، ط2، (دمشق، سورية، دار الفرقد، 2008)، ص53.

3- مشكلة البنية، مرجع سابق، ص29-30، بتصرف.

4- جون ستروك، البنيوية وما بعدها، من ليفي ستروس إلى جاك دريدا، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد 206، دط(الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996)، ص 7.

هذه الجزئية في المطلب الأخير من هذا البحث وبيان موقف "رولان بارت"نفسه من هذه الإشكالية، أي باعتبارها طريقة في البحث أم أنها مذهب فلسفي ومنهج متكامل.

أمَّا "ليونارد جاكسون"فيعرفها بمعنى شامل يقول فيه: "تعنى البنيوية في معناها الواسع بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات والعقول واللغات والأساطير، فتنظر إلى كل ظاهرة من هذه الظواهر بوصفها نظاما تاما، أو كلا مترابطا، أي بوصفها بنية، فتدرسها من حيث نسق ترابطها الداخلي لا من حيث تعاقبها وتطورها التاريخيين، كما تعنى بدراسة بدراسة الكيفية التي تؤثر بها بنى هذه الكيانات على طريقة قيامها بوظائفها"[1]

وهذا التعريف يدل على التداخل والتركيب الكبير والتعقيد والكثافة في الظواهر التي تهتم بها ولهذا كانت محط اهتمام الكثير من المدارس، لهذا كان من أهم ميزاتها هو اهتمام بتقعيد الظواهر وتحليل مستوياتها المتعددة في محاولة القبض على العلائق التي تتحكم بها، وهذا ما يجعل منها منهجا لا فلسفة، وطريقة وليس أيديويولوجيا، أي باختصار ما يجعل منها علوما كثيرة تهتم باستخراج المستويات التحليلية للظواهر الإنسانية وكشف العلائق والأنساق السائدة فيها.[2]

وفي الأنثروبولوجيا نقف مع أبي البنيوية الفرنسية والغني عن كل تعريف"كلود ليفي ستروس" والذي يعرفها بوصفها" محاولة ممنهجة للكشف عن الأبنية العقلية الكلية العميقة، كما تتجلى في أنظمة القرابة والأبنية الاجتماعية الأكبر، ناهيك عن الأدب والفلسفة والرياضيات والأنماط النفسية اللاواعية التي تحرك السلوك الإنساني".[3]

فهو صاحب الفضل في نقل النظرية إلى الفكر الفرنسي عموما والأنثروبولوجيا خصوصا وتحديد معالمها واعتمد في ذلك على لسانيات "دو سوسير والذي سنتحدث عن فضله في التنظير للبنيوية في المطلب الثالث"، فـ"ليفي ستروس لم ستوصل إلى المنهج الذي أتاح له تطبيق البنيوية في الأنثروبولوجيا إلا أواخر الأربعينات، وكان ذلك حين سعى ستروس إلى تفسير التحولات التي تحدث في الثقافة، وفي الإدراك الفردي للواقع الاجتماعي، في محاولة ممنهجة للكشف عن معنى الأساطير

1- بؤس البنيوية، مرجع سابق، ص47.

2- مجموعة مؤلفين، مدخل إلى معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ط2، (الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 1996)، ص39، بتصرف.

3- عصر البنيوية، مرجع سابق، ص17.

القبلية من خلال دراسة التعارضات اللغوية والتحولات في اللغة المنطوقة".[1] وهذا يعني في نظر "إبراهيم زكريا" أن مهمة الباحث في العلوم الإنسانية عند ستروس هي التصدي لأكثر الظواهر البشرية تعقدا وتعسفا واضطرابا وعدم اتساق من أجل محاولة الكشف عن النظام في وسط تلك الفوضى، والوصول إلى البنية التي تتحكم في صميم العلاقات الباطنية للأشياء.[2]

أمَّا في مجال تاريخ الأفكار والفلسفة فنتعرض إلى رأي قامة فكرية أخرى وهو"ميشال فوكو"ويعرفها بأنها"مجموعة من المحاولات التي نقوم بواسطتها بتحليل ما يمكن تسميته بالركام الوثائقي، أي مجموعة العلامات والآثار والإشارات التي تركتها الإنسانية في الماضي والآتي، والتي ما زالت تكونها يوميا وبعدد متزايد حولها"، فهو يتحدث هنا عن بنيوية مرتبطة بتحليل الوقائع التاريخية بالبنى المُشكلة لتاريخ المعرفة والثقافة الإنسانية، لذلك سميت أعماله النقدية في جملتها بالحفريات التاريخية.[3]فهو كما ترى"إديث كرتوزيل" : "يركز على الصلات الخفية بين المؤسسات الاجتماعية والأفكار والعادات وعلاقات القوة مع تركيز خاص على تحولات السياق الاجتماعي ولمحاولة الكشف عن شفرات المعرفة في المجتمع التي تتحول باستمرار".[4]

وبعد هذا العرض الموجز الذي عمدنا فيه إلى انتقاء تعريفات بعض الأقطاب في البنيوية، معرضين في نفس الوقت عن التفصيل في المبادئ والمعالم والتنظير الذي اعتمده كل حسب زاوية اختصاصه، نسعى الآن إلى عرض بعض المفاهيم التي عرّف بها كبار المختصين في النقد الأدبي للبنيوية على أن نقوم بالحديث عن نتطرق توظيفها في دراسة النصوص الأدبية والهدف من ذلك في المطلب الثاني، كما أننا سنرجئ الإشارة إلى تعريف "رولان بارت" لها في جزئية لاحقة من هذا البحث.

يعرفها اللغوي "هلمسليف" رائد المدرسة الدانماركية والمسماة بحلقة كوبنهاغن بـ: "أنَّ المقصود باللغويات البنيوية هو مجموع الأبحاث التي تستند إلى فرض واحدٍ مؤداه أنه من المشروع علميا وصف اللغة أولا وبالذات كيانا مستقلا من العلاقات الباطنية التي يتوقف بعضها على البعض الآخر، أعني

1- نفس المرجع، ص 26.

2- مشكلة البنية، مرجع سابق، ص31، بتصرف.

3- عبد القادر رحيم، البنيوية، مفهومها واهم روافدها، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير، بسكر، عد: 14-15، جانفي-جوان2014، ص471، بتصرف.

4- عصر البنيوية، مرجع سابق، ص28.بتصرف.

بكلمة واحدة"بنية"... وأنَّ تحليل هذا الكيان الواحد المستقل لهو الذي يسمح لنا دائما باكتشاف أجزاء تجمع بينها على سبيل التبادل علاقة الشارط بالمشروط بحيث ان كلا منهما ليتوقف على الآخر، دون أن يكون في الإمكان تصوره أو تحديده بدون الإستناد إلى باقي الأجزاء الأخرى، ومعنى هذا أن من شأن التحليل البنيوي أن يرد موضوعه إلى حزمة من العلاقات التي يتوقف بعضها على بعض ، مادام ينظر إلى الوقائع اللغوية على أنها ظواهر متماسكة يفسر بعضها البعض الآخر".[1] فاللغة في نظره كما يشرح ذلك"زكريا ابراهيم" بقوله: "أنها بنية، هي نسيج وحدها، أعني أنها كل مكتف بذاته وبالتالي فإنها تتطلب أدواتها الخاصة في التحليل".[2]

وقد أورد "ثائر إبراهيم المصاروة"مجموعة من التعاريف للبنيوية في النقد الأدبي العربي انطلاقا من وجهة نظر بعض النقاد الذين اهتموا بها وطبقوها على دراساتهم، نورد منها على سبيل المثال تعريف"عبد السلام المسيدي" القائل بأن " المنهج البنيوي يعتزم الولوج إلى بنية النص الدلالية من خلال بنيته التركيبية"، أما "نبيلة ابراهيم"فترى"أن المنهج البنيوي يعتمد في دراسة الأدب على النظر في العمل الأدبي في حد ذاته بوصفه بناء متكاملا بعيدا عن أية عوامل أخرى، أي أن أصحاب هذا المنهج يعكفون من خلال اللغة على استخلاص الوحدات الوظيفية التي تحرك العمل الأدبي"، ويعرفها كل من"فائق مصطفى"و"عبد الرضا"على "أنها منهج فكري يقوم على البحث عن العلاقات التي تعطي العناصر المتحدة قيمة، ووصفها في مجموع منتظم مما يجعل من الممكن إدراك هذه المجموعات في أوضاعها الدالة"، بينما يرى "جميل حمداوي" بأنها: "طريقة في قراءة النص الأدبي تستند إلى خطوتين أساسيتين هما: التفكيك والتركيب، كم أنها لا تهتم بالمضمون المباشر، بل تركز على شكل المضمونوعناصره وبناه التي تشكل نسقية النص في اختلافاته وتآلفاته".[3]

وانطلاقا من هذا فالبنيوية لا تهتم بالمجال التاريخي أو الاجتماعي أو الفكري الذي كتب فيه النص، وإنما تهتم بالمركبات الداخلية للنص، لا بما هو خارجه، وبالتالي يسجد هذا ما يقوله "بارت"خصوصا ، والبنيوية الأدبي عموما أنه"لا شيئ خارج النص".

1- مشكلة البنية، مرجع سابق، ص69.

2- نفس المرجع، ص 60.

3- البنيوية بين النشاة والتاسيس، مرجع سابق، ص10-11.

وجدير بالذكر أن البنيوية اللغوية كانت الأصل الذي استمدت منه مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية مبادئها وأدواتها في دراسة الظواهر، ويعود الفضل في ذلك كله إلى جهود "دو سوسير" كما سنشير إلى ذلك لاحقا، فـ"الإتجاه البنيوي المعاصر نظرا لأنه قد كان في أصله ثمرة للنجاح الذي أحرزته علو اللغويات...فإنه قد حرص على تأكيد حقيقة أخرى، ألا وهي أنه لا يمكن أن تكون ثمة بنية إلا حيث تكون ثمة لغة، ولم يكن انتشار البنيوية في مجالات أخرى غير مجال اللغة على سبيل التشبيه أو المجاز، أو لمجرد الرغبة في الإمتداد بالنموذج اللغوي إلى دوائر أخرى جديدة، وإنما كان صدى اقتناع البنيويين بأهمية الرمز في حياة الإنسان بوصفه مصدرا للتفسير من جهة، ومنبعا للإبداع الحي من جهة أخرى، وهكذا أصبحت البنيوية تضم تحتها كل العلوم المهتمة بدراسة الرموز أو العلامات أو الملامح أو على الأصح أنسقة العلامة، مع العلم بأن الجديد في العلامة ليس هو المدلول نفسه، بل علاقته بالدال".[1]وهذه فكرة جوهرية في الفكر الحداثي وبالخصوص عند "كلود ليفي ستروس" كما سيتضح ذلك في حينه.

وفي الختام نقدم مفهوما عاما نحاول من خلاله جمع الرؤى المتعددة ضمن تعريف يبدو لنا على انه جامع انطلاقا من التعريف الذي قدمه"زكريا ابراهيم"مستعينا في ذلك بـ "لالاند" قائلا: "إن البنية هي كل مكون من ظواهر متماسكة، يتوقف كل منها على ما عداه، ولا يمكنه أن يكون ما هو إلا بفضل علاقته بما عداه" ويعلِّق عليه بالقول: "ولا شك أن من مزايا هذا التعريف أنه عام يصدق على جميع أنواع البنيات، بما فيها البنية الرياضية، والبنية اللغوية، والبنية الأنثروبولوجية....إلخ".[2]

المطلب الثاني: تاريخ النظرية البنيوية وعوامل انتقالها من الإنسانيات إلى اللاهوت:

نهدف في هذا المطلب إلى الحديث عن الأصول التاريخية التي أدت إلى نشأة البنيوية بإيجاز شديد من خلال التركيز على اهم المحطات والأعلام، ثم نعرج على عوامل انتقالها من حقل العلوم الإنسانية والإجتماعية والنقد الأدبي إلى حق الدراسات اللاهوتية، والأسباب التي دعت إلى تطبيق المناهج الأدبية على نصوص الكتاب المقدس، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن الفهم السليم للبنيوية يقتضي المعرفة والإلمام بتاريخها وأصولها، كما يرى في ذلك"صلاح فضل" الذي يقول: "لكي نفهم البنائية لابد لنا أن نعود إلى أصولها الأولى ونحاول تقديم طرف من تاريخها القريب لإلقاء الضوء

1- مشكلة البنية، مرجع سابق، ص39-38.

2- نفس المرجع، ص38.

على بذورها في الفكر الحدث وتطورها في مختلف العلوم الأنسانية قبل أن نرى كيف تصب في الدراسات النقدية والأدبية" [1].

أولا: التنظير السوسيري للبنيوية:

يعتبر العالم اللغوي "فرديناند دوسوسير" أول المنظرين للمنهج البنيوي رغم أنه لم يستعمل كلمة بنية، فقد"أجمع الباحثون أو كادوا على ان حفنة المبادئ اللغوية الأولى كرس لها عالم سويسري حياته القصيرة في مطلع هذا القرن، حيث لم يمهله القدر لإنهائها وتسجيلها كتابة، وإنما لم يزد على إملائها في عدة برامج دراسية على طلابه في جنيف، تمثل حجر الزاوية ونقطة الإنطلاق في النظرية البنائية، لا في علم اللغة فحسب، وإنما في جميع ميادين المعرفة، وهذا العالم هو "فريديناند دوسوسير" الذي استطاع أن يؤسس مدرسة لغوية حديثة أصبحت تعد انموذجا رائدا للعلوم الإنسانية وقدرتها على ان تصبح علوما دقيقة تضارع العلوم الطبيعية والرياضية في خضوعها للمنهج العلمي المضبوط"[2].

ويشيد "زكريا ابراهيم" بأعماله ويعتبره أبا البنيوية ورائدها دون شك قائلا: "إن الذي لاشك فيه أن الأب الحقيقي للحركة البنيوية في العصور الحديثة هو العالم اللغوي السويسري"دوسوسير"، وعلى الرغم من أن أهم أعمل أستاذ اللغويات الكبير بجنيف لم تنشر إلا بعد وفاته، إذ قام بنشر محاضراته في علم اللغة بعض تلامذته عام 1916م أستنادا إلى مذكراته وما سجله بعض مستمعيه، بل وعلى الرغم من أن"دوسوسير"نفسه لم يستخدم كلمة بنية، وإنما استخدم كلمة نسق أو نظام، إلا أن الفضل الأكبر في ظهور المنهج البنيوي في دراسة الظاهرة اللغوية يرجع إليه هو أولا وبالذات، صحيح ان أحدا لم يكترث بتلك المحاضرات التي ظهرت لأول مرة في أحلك ساعات الحرب العالمية الأولى، ولكن من المؤكد أن"نيتشه"لم يجانب الصواب حين قال: إن جلائل الأعمال كثيرا ما تجيئ على أقدام حمائم السلام. أجل، فقد كان ظهور محاضرات دوسوسير في علم اللغة عام 1916م، فاتحة عهدا جديدا في مضمار العلوم اللسانية بصفة خاصة، والعلوم الإنسانية بصفة عامة" [3]، ولسنا نسعى إلى بيان الأصول التي قامت عليها نظريته في دراسة اللغة المعروفة بالثنائيات، ومع ذلك فإننا سنقف عندها وقفة سريعة نظرا لإفادة "بارت" منها وحضورها في أعماله، فـ "دو سوسير"عرّف اللغة بأنها"نظام

1- نظرية البنائية، مرجع سابق، ص18.

2- نفس المرجع، ص 19.

3- مشكلة البنية، مرجع سابق، ص 43.

من الإشارات التي تعبر عن الأفكار"، فقوّض أصول الدرس التقليدي للغة، الذي كان يرى فيها وسيلة معبرة عن الأشياء، وهذا ما أضفى على اللغة أهمية لم تكن تتمتع بها من قبل، فقد دخلت من صميم البنية اللاشعورية للإنسان، ومن أجل استقراء أبعاد الظاهرة اللغوية، لجأ منهجيا إلى اشتقاق بضع ثنائيات عُدّت مرتكزات أساسية في البحث اللغوي الحديث، وأهمها: اللغة والكلام، التزامن والتعاقب، الدال والمدلول، علاقات التتابع والترابط، وهذه الثنائيات سهلت وضبطت العلمية الوضعية–الإستقرائية للظاهرة اللغوية، إن كان على مستوى الدراسة المنهجية باتباع طرائق جديدة في البحث، كما هو الأمر في الدراسة التزامنية للغة أو التعاقبية التطورية، أو في الوقوف على ظاهرة النص وباطنه كما هو الأمر في البحث الدلالي، وقد كان لدي سوسير تأثير عظيم في تكوين وبلورة وتطوير نظرية علم اللغة الحديث".[1]

ونحاول أن نلخص هذه الثنائيات الأربع انطلاقا مما ذكره"المصاروة" الذي يقول: "توصل دوسوسير إلى أربعة كشوف هامة تتضمن :

– أولا: مبدأ ثنائية العلاقات اللفظية أي التفرقة بين الدال والمدلول، فهو يتحدث عن الكلمة التي يعتبرها إشارة وليست إسما لمسمى، بل هي كل مركب يربط الصورة السمعية والمفهوم، ويقصد بذلك الدال وهو الصورة السمعية، والمدلول وهو المفهوم، ولهذا اعتبر اللغة نظاما من الإشارات التي تعبر عن اللغة والعلاقة بين تلك الإشارات ومدلولاتها علاقة اعتباطية بدليل اختلاف الإشارة.
– ثانيا: أولوية النسق أو النظام على العناصر: ويقصد بذلك على ان اللغة نظام، بنية نظام، وذلك لكونه مؤلف من وحدات لها تاثير متبادل على بعضها، ويدعو إلى تحليل البنية(النظام)، وكشف عناصرها كالرموز والموسيقى والصور في نسيج العلاقات اللغوية، أي في أنساقها لمعرفة ملابسات بنيتها من الداخل والخارج، والبحث عن مجموعة العناصر وعلاقاتها المتشابكة داخل هذا النظام.

1– معرفة الآخر، مرجع سابق، ص8–9، بتصرف.

- ثالثا: التفرقة بين اللغة والكلام: فاللغة عنده نظام من الإشارات تعبر عن تلك اللغة، فهو يفرق بين اللغة التي هي مجموعة قواعد ووسائل، أما الكلام فيجسد تلك القواعد وظيفيا من خلال الأداء والتحقق.
- رابعا: التفرقة بين التعاقب والتزامن: فيرى انه يمكننا دراسة نسق اللغة إما بالتزامن او بالتعاقب، بدراسة اللغة دراسة وصفية آنية في لحظتها الزمنية دون مراعاة التطور التاريخي، فالتزامنية تختص بوصف حالة اللغة، أما التعاقبية فتدرس التطور والتغير الطارئ على اللغة عبر تعاقب الأزمان، بمعنى وصف المرحلة التطورية للغة.[1]

ثانيا: المدرسة الشكلانية الروسية:

بعد أن توفي دوسوسير ولم تكن محاضراته في علم اللغة قد استأثرت باهتمام واسع، كان الشكلانيون الروس يضعون أسسا لثورة منهجية في درس الأدب واللغة، وذلك في محاولة أصيلة لجعل الموضوعات الأدبية مادة النقد الأدبي، هادفين إلى خلق علم أدبي مستقل انطلاقا من الخصائص الجوهرية للمادة الأدبية. فهدف الشكلانيين الروس كان الوعي النظري والتاريخي بالوقائع التي تخص الفن الأدبي بما هو كذلك، وقد كان لهم أثر في إرساء نظرية أدب تضع العمل الأدبي موضع اهتمامها الرئيس، رافضة المقاربات النفسية والإجتماعيى التي كانت تؤلف الموروث النقدي من قبل.[2]

إذ تعد المدرسة الشكلية الروسية الرافد الثاني من روافد البنائية الكبرى بعد أن وضع دوسوسير حجرها الأساس، ففي عام 1915م، قامت مجموعة من طلبة الدراسات العليا بجامعة موسكو بتشكيل حلقة"موسكو اللغوية "أولا كحركة منظمة تستهدف استثمار الحركة الطلعية الأدبية والقضاء على المناهج القديمة في الدراسات اللغوية والنقدية، وبعد ذلك بعام واحد انضم إلى صفوفهم كوكبة أخرى من نقاد الأدب وعلماء اللغة وألفوا جمعية دراسة اللغة الشعرية التي تعرف باسم (apjaz أبوجاز) وبذلك ولدت المدرسة الشكلية في الشكلية في هذين المركزين".[3]

وأما عن مبادئها فيكفينا ما ذكره"عبد القادر رحيم"نظرا لاتساعها وعدم ملائمتها لطبيعة الموضوع إلا في بعض الجزئيات التي استفاد منها"بارت" من جهة، ولما تقتضيه المنهجية في التعريج على أهم

1- البنيوية بين النشأة والتأسيس، مرجع سابق، ص22-23-24، بتصرف.

2- معرفة الاخر ، مرجع سابق، ص09.

3- نظرية البنائية ، مرجع سابق، ص 23.

المحطات التاريخية والرئيسية التي شكلت أصولها من جهة أخرى، فهو يقول: " وأما الشكلانية في المفهوم الشاسع فحركة نقدية أخذت على عاتقها مهمة علمنة الدراسات الأدبية انلاطقا من مبدأين اثنين هما:

- **المبدأ الأول:** وقد لخصه"ياكبسون" قائلا: "ليس الأدب هو موضوع الأدب وإنما هو الأدبية، أي ما يجعل من أثر ما أثرا أدبيا"وبهذا حصروا اهتمامهم في نطاق النص.
- **المبدأ الثاني:** ويتعلق بمفهوم الشكل، فقد رفضوا رفضا قاطعا ما كانت تذهب إليه النظرة التقليدية من أن لكل أثر أدبي ثنائية متقابلة الطرفين، هي الشكل والمضمون، وأكدوا أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله.
- وإضافة لهذين المبدأين، فإن الشكلانيين الروس قد وضعوا رؤى علمية صارمة أكدوا عليها من بينها:
- التشديد على الأثر الأدبي وأجزائه المكونة.
- الإلحاح على استقلالية علم الأدب.
- رفض النزعة التأريخية.
- الصورة الأدبية هي خلق لرؤية خاصة بالشيئ وليست مجرد تعبير عنه.
- إقصاء المعنى بالتعامل مع الحقائق اللفظية لا الفكرية.
- إقصاء الرؤية النفسية والتاريخية والإجتماعية لأنها اختصاص العلوم الإنسانية.
- وقد ظلوا على هذه المنطلقات من 1915إلى 1930م، وكانت نهايتهم بعد صراعهم مع الشيوعية.[1]

ثالثا: مدرسة حلقة براغ اللغوية:

تشكلت حلقة براغ من مجموعة من الباحثين واللغويين أمثال"جاكبسون "الذي هجر روسيا بعد أن أفلت الشلاكينة بسبب الضغوط السياسية، والتحق بحركة براغ مقدما خلاصة لما توصل إليه هو وأقطاب الشكلانية الروسية[2]، وقد تأسست كما يذكر صلاح فضل إثر قيام طائفة من علماء اللغة في تشيكوسلوفاكيا بتكوين حلقة دراسة ضمت إلى صفوفها مجموعة كبرى من الباحثين الذين ينتمون إلى

1- عبد القادر رحيم، مرجع سابق، ص 475-476.

2- معرفة الاخر ، مرجع سابق، ص16.

بلدان أخرى... وأخذوا يصوغون جملة من المبادئ المهمة وتقموا بها إلى المؤتمر الدولي الأول لعلماء اللغة بلاهاي 1928م، بعنوان"النصوص الأساسية لحلقة براغ"وبعدها في 1930م ظهرت أول مدرسة منهجية في تاريخ الأصوات اللغوية بإعداد"جاكبسون" وعقد في براغ مؤتمر للصوتيات، ثم تاكدت الحركة الصوتية على المستوى الدولي بمجموعة من المؤتمرات اللاحقة وتبلورت في ثمانية أجزاء عن أعمال الحلقة نشرت عام 1938م.[1]

ولهذه الحلقة مجموعة من المبداىٔ أهمها:

- التركيز على وظيفية اللغة.
- التأكيد على الدراسة الوصفية للغة والبعد عن التأريخ.
- الاهتمام بعلاقة المتكلم بكلامه.
- التأكيد على الشولية والكلية في تحليل مستويات اللغة.
- الاهتمام بالشعر وعروضه.

ويعود الفضل إلى هذه الحلقة في استعمال كلمة المنهج البنيوي لأول مرة من طرف اللساني"موكاروفسكي"في مؤتمر لاهاي سنة1928م.[2]

وتعدُّ هذه المدارس الثلاثة الكبرى اهم الروافد الأساسية للمنهج البنيوي، ويكفينا ما اشرنا إليه على أن نتكلم عن المدرسة الفرنسية في جزئية أخرى وربطها بجهود"بارت".

وقد سبق لنا الإشارة إلى أن اللغويات هي الأصل الذي استمدت منه الإنسانيات والإجتماعيات المبادئ البنيوية وطرق تطبيقها، والتي شكلت آنذاك ثورة معرفية ومنهجية كبيرة، لما جاءت به من نتائج، فقد"استطاع علم اللغة الحديث...أن يلعب دورا بالغ الأهمية في مجال الدراسات الإنسانية ذات الطابع البنائي حتى أصبح يعد ابنها الأكبر الذي وصل في نضجه وتنظيمه وثراء مقولاته ودقتها إلى حد اعتباره المثل الذي تحتديه جميع الدراسات الإنسانية تقريبا، بل اعلن بعض الباحثين في احد المؤتمرات المشتركة بين علمي اللغة والإجتماع انه قد تخطى الحاجز الفاصل بين العلوم الإنسانية والطبيعية، وأن أحد فروعها على الأقل وهي الصوتيات، تتميز بكل خصائص العلوم الدقيقة، مما يؤذن بتغيير شامل لا يتقصر على علم اللغة وإنما يتجاوزه إلى بقية العلوم الإنسانية، إذ يقوم بالنسبة

1– نظرية البنائية، مرجع سابق، ص 74 بتصرف.

2– عبد القادر رحيم، مرجع سابق، ص 476–477.بتصرف.

لها بنفس الدور الذي قام به علم الطبيعية الذري بالنسبة للعلوم البحتة، وضاحب هذا الرأي ليس باحثا مغمورا، وإنما هو أكبر عالم أنثروبولوجي معاصر ومؤسس البنائية الحديث في نخر مراحلها"كلود ليفي ستروس".[1] فقد كان دخول البنيوية إلى العلوم الإنسانية بمثابة انقلاب كوبرنيكي وتحول إلى موضة فكرية للعصر، وقد اعتمدتها العلوم الإنسانية منذ حوالي منتصف القرن العشرين انطلاقا من الكشوفات الألسنية، وبخاصة اعتمدا النموذج اللغوي في الجملة مقياسا لكشف بنية العلوم ووصفها ثورة اتخذت سمة الموضوعية، وكان الباحث والناقد يَجِدُّ في إيجاد أوجه التطابق بين وقائع المادة فيد البحث والنموذج اللغوي، وكان يصف موضوعه بدقة معتمدجا الإحصاءات والترسيمات الي تعينه على إثبات أوجه الشبه، ولما كانت علوم اللغة تنجز كشفا جديدا...فإن تلك العلوم سرعان ما تستفيد من ذلك الكشف لإثراء كشوفاتها وضبط مستويات البحث في حقلها المعرفية.[2]

ولهذا فإن الفهم السليم لهذه النظرية يجب أن يكون ذو إلمام واسع بمختلف تمظهراتها في سائر الحقول المعرفية كما سبق الحديث عن ذلك، وهذا ما يجعلها تتسم بصفة التعقيد والصعوبة"فأي عرض أمين لهذه النظرية لابد وان يمتد إلى هذه العلوم باحثا عن كيفية احتضانها لبذرة البنائية ونموها".[3]

وبعد هذه الإشارة السريعة ولوج النظرية البنيوية إلى مختلف العلوم الإنسانية والإجتماعية وانعكاس ذلك على نتائجها التي كانت بمثابة ثورة حقيقية في عالم المناهج والفكر، ولم يكن للبنيوية أثر على هذه الحقول فقط، فقد انتقل تأثيرها إلى حقل يتصف بالكثير من الحساسية والخصوصية لطبيعة مواضيعه، وهو حقل الدراسات اللاهوتية التي تدرس المقدس المتعالي الذي لا يقبل التدنيس، انطلاقا من نصوصه المؤسسة له وهي كتبه المقدسة، التي تشكل الركيزة الأساسية في فهم العقائد والشرائع، وأن أي تفسير لها أو شرح لا ينبغي ان يخرج عن دائرة ما تحدده وترسمه من مناهج وقواعد وما يخدم رؤية المؤسسة الدينية، وهنا نصل إلى لب موضوعنا، وهو اقتحام تفسير وشرح نصوص الكتاب المقدس انطلاقا من التطبيقات البنيوية اللغوية عليها لكشف مقاصدها ومضامينها وبنيتها اعتمادا على"رولان بارت".

1– نظرية البنائية، مرجع سابق، ص 89.

2– معرفة الاخر، مرجع سابق، .ص20–21.

3– نظرية البنائية، مرجع سابق، ص13.

وقد كان تفسير الكتاب المقدس حكرا على آباء الكنيسة فقط"هم الذين يتولون تفسير الكتاب المقدس، وكانوا يعتبرون أن العهد الجديد هو أساسا تفسير للعهد القديم، فظهر التفسير الرمزي لحفية العهد القديم، وهنالك الحرفي والروحي، والإنجيل حسب المفسرين هو الوسيلة لبلوغ روح الكتاب المقدس، ويرون ان الاناجيل جاءت لتحقق وتجسد في المسيحي مان كان العهد القديم قد تضمنه رمزيا، فالإنجيل تتميم وتكميل للتوراة، وهكذا تأرجحت اتجاهات التفسير ما بين الذين يشددون على التفسير الحرفي والذين يشددون على التفسير الرمزي الروحي، وبينهما اتجاهات توفيقية، ولكن هذا التفسير باتجاهاته كان متوارثا داخل الكنيسة ومؤسساتها، وتبلورت خصوصا في العصر الوسيط، نظرية المعاني الأربعة الكامنة في نصوص التوراة والإنجيل:

– المعنى الحرفي أو التاريخي، أي معنى الأحداث كما جرت.
– المعنى الرمزي أو الروحي حيث تتعالى أسرار الإيمان.
– المعنى الإنساني أو الخلقي الذي يعلم المؤمن قواعد السلوك.
– المعنى الروحاني الذي يكشف للمؤمن عن الغاية التي يبلغها.[1]

وبهذا نفهم ان النيسة لم تكن تقبل بالشروح التي لا تتناسب مع طبيعة اللاهوت المسيحي، لكن الأمر تغير بتغير الزمن وظهور حركة النهضة والتخلص من الوصاية الكنسية وثورة العلم عليها وتجدد مناهج البحث، وخاصة في عصر التنوير أين تم إلغاء مركزية الكنيسة لصالح العقل كمصدر للمعرفة، ومع الكشوفات الأثرية والرحلات الجغرافية وتطور العلوم الإنسانية والإجتماعية، ف"عصر النهضة في أوروبا شهد استقلال العلم بعد ان كان خادما للإيمان، وهذا العلم المستقل يقوم على ملاحظة مستقلة للظواهر الطبيعية وقوانينها، وظهرت بذور التجربة الفردية ونقد سلطة النص لصالح سلطة العيان التجريبي، فكان لابد أن ينكشف التناقض بين الكنيسة والعلم الوليد، ثم صارت التوراة والإنجيل نفسهما موضعا للبحث العلمي، فيبدأ البحث في الظروف التاريخيةالتي شهدت ولادة النصوصو وتكونها وكيفيات انتقالها عبر القرون، وفي مؤلفيها ولغتهانوهذا يعني ان التوراة والإنجيل قد أنزلا من موقعهما

1– رولان بارت، التحليل النصي، تطبيقات على نصوص من التوراة والإنجيل والقصة القصيرة، تر: عبد الكبير الشرقاوي، د ط ، (دمشق، سوريا، دار التكوين، 2009)، ص08–09.

المتعالي على التاريخ إلى مرتبة الحدث التاريخي الخاضع مثل كل الظواهر التاريخية لعوامل النشوء والتطور والتحول".[1]

وقد ظهرت عدة مدارس كمدرسة"تاريخ الأشكال"التي تدرس النصوص الدينية من حيث تشكلها من أنواع خطابية ووحدات أدبية صغرة كالأدعية والنبؤات والحكايات العجائبية والمحكي والأسطوري ليتم الكشف عن البيئات التي انتجتها، ومدرسة"تاريخ التأليف"في بحث تاريخية النص، وقد ساد المنهج التاريخي او النقد النصي مختلف المقاربات التي لاقت تعنيفا من الكنيسة" [2]، إلا أن بحثنا لا يركز ولا يهتم بالمجال النقدي للنصوص الدينية، إنما يهتم بعرض الجهود التطبيقية للنظرية البنيوية في محاول شرح وتفكيك وكشف أنماط وبنية النص المقدس في المسيحية انطلاقا من نظرية أدبية محضة، فقد خضع الكتاب المقدس إلى التحليل النصي الأدبي باعتباره يحمل خصائص أدبية كما يرى ذلك"نورثروب فراي" : "وليس التناول الأدبي للكتاب المقدس بالامر غير المشروع في ذاته فلا يمكن أن يكون كتاب قد مارس كل هذا التأثير الأدبي دون ان يمتلك في ذاته الخصائص الأدبية" [3]، وهذا العمل الذي سنقوم بعرضه ينطلق من التطبيقات النظرية للبنيوية على العهد الجديد اعتمادا على"رولان بارت".

المطلب الثالث: جهود"رولان بارت"في التأسيس المنهجي لعلم التحليل البنيوي للسرد:

نسعى في هذا المطلب إلى بيان موقع"بارت"من البنيوية وإسهامه في تطوير نظريتها في الأدب، وبالخصوص عن مشروعه في التأسيس لمنهج تحليلي جديد اصطلح عليه ب"المحكي" أو"القصة"أو"السرد"، معتمدا في ذلك على مجموعة من نصوص القصص والمحكيات التي اتخذها كنماذج للبحث من أجل تطبيق نظريته وأدواتها وآلياتها، ومن بينها نصوص العهد القديم والعهد الجديد، والتي اعتبرها نماذج ممتازة لخصائصها الأدبية، وقال بصلاحيتها للدراسة البنيوية وللتحليل النصي، ودعا إلى توظيف البنيوية في حقل الدراسات اللاهوتية لرؤيته بأنه ذو قدرة على تحليل مضامين النصوص وكشف انساقها وبنيتها، وهذا هو الإطار العام الذي يقع فيه بحثنا، أي سعي "بارت"إلى

1- نفس المرجع، ص 09-10، بتصرف.

2- نفس المرجع، ص 09-10، بتصرف.

3- نورثروب فراي، المدونة الكبرى، الكتاب المقدس والأدب، تر: سعيد غانمي، ط1(بيروت-لبنان-، أبوظبي-الإمارات، كلمة ومنشورات الجمل، 2009)، ص24.

تأسيس علم السرد أو التحليل النصي للمحكيات، متخذا فيه نصوص الكتاب المقدس كنموذج للتطبيق لرؤيته بأنها تحمل في الكثير من طياتها عددا هائلا من المحكيات، وقبل الشروع في الحديث عن ذلك، ارتأينا أن نقدم لمحة موجزة حول إسهامات"بارت"في النظرية البنيوية.

ولد "رولان بارت"عام 1915م وتوفي شهر فبراير عام1980م عن خمسة وستين عاما، بعد ان صدمته سيارة وهو يعبر الشارع المواجه للكوليج دو فرانس، وقد مر نتاجه بعدد من المراحل لأن"بارت"نفسه قد تقلب بين الوجودية والماركسية والبنيوية وعلم اللغة والنقد النصي، وجمع بين علم الاجتماع والنقد الأدبي، ولكنه ظل دائما يفضح زيف كل حقيقة نقبلها على علاها، ويستحث فكر ليتجاوز حدوده السابقة ويروغ من تصنيفات الحدود المعرفيةنوذلك يرفض بارت تصنيفا يحصره في نمط بعينه، ويتأبى نتاجه على علماء الاجتماع الذين يحاولون تصنيف هذا النتاج، حتى عندما يكرر بارت نفسه الإشارة إلى سوسيولوجيته الخاصة، ومع ذلك فهو يحاول الكشف عن علاقة بين الفكر والمجتمع دون ان يستخدم المناهج الاجتماعية المعتادة، ومنهجه الذي يتميز به في الوقت الحالي هو التركيز على لغة النصوص، ولعل كلمة المنهج أضيق مما ينبغي لهذا المقام، ولكنه يمضي إلى ما هو أبعد من هذه النصوص ليعثر على الروابط اللاعقلية واللامنطقية التي تصل بينهما، وينطلق في تداع حر ويخلق كلمات ومعاني يطرز بها ما يحلله من هذه النصوص وما يفترضه كامنا وراءها، قاصدا كل الأفكار والأديولوجيات الزائفة، وقد حاول لفترة أن يبني لإطارا تصويريا شاملا تتكامل به كل الأعمال والأفعالالخلاقة للماضي والمستقبل، من خلال اللغة المستخدمة، غير ان ذلك كله لا يساعد على تصنيف بارت، فهو يظل أقرب إلى اللغة يشبهه في ذلك "جورج باطاي"الذي لا يستطيع أحد فيما يقول بارت نفسه أن يصنفه في فئة معينة بعينها، تجعل منه روائيا أو شاعرا أو كاتب مقالات أو اقتصاديا أو فيلسوفا أو صوفيا، إذ يظل بارت مزيجا ملغزا يعاند التصنيف"[1]، وهذا يفيد بأن عملية تصنيف بار ت ضمن حقل معرفي محدد صعبة جدا لتقلبه بين مختلف النظريات والمذاهب، ورغم كل ذلك فيعيتبره الغالبية بنيويا فرنسيا رغم أن البعض من الدارسين يصر على أنها اكنت محطة في حياته الفكرية والمهنية المتنوعة وليست المحطة التي توصل فيها اكثر من غيرها إلى بلوغ صوته الخاص، فإنها أهم محطاته على الإطلاق، إذ أنها منبع تاثيره ولحظة جني ثمار مشروعاته ومواقفه

1- عصر البنيوية، مرجع سابق، ص 249-250.

السابقة أو منصة انطلاق لمغامرات قادمة، وعندما أضحت البنيوية مصدرا للسلطة، استطاع بارت بسهولة أن يبتعد عنها بمسافة سمحت للبعض أن ينظروا إليه باعتباره ما بعد بنيوي، وهو ما يترتب عليه خلط كبير، ذلك أن ابتكار البنيوية يعني اختزال البنيوية إلى صورة كاريكاتورية ضيقة، وجانب كبير مما تم التبشير به باعتباره ما بعد بنيوي كان في الحقيقة حاضرا بوضوح في الكتابات البنيوية"[1]، ويحتوي هذا الموضوع الكثير من التفاصيل التي لا تخدم طبيعة موضوعنا الذي نهدف من خلاله إلى موضعة بارت في اللإطار الذي يرتبط بإشكالية بحثنا، فقد كان له إسهام كبير في النقد الأدبي بمختلف مواضيعه وتمظهراته وتبنيه للبنيوية، وبالتالي يقتضي منا ذلك أن نتكلم عن علم السرد، ورؤيته له وعن الدراسة البنيوية للقصة أو المحكي والغاية منها، وطريقة شرحها والمبادئ التي حددها ومعالمها وقواعدها وخطواتها، حتى نمهد للدراسة التطبيقية التي قام بها على نصوص العهد الجديد وبالتخصيص على نص أعمال الرسل، ولهذا فإننا سنركز الآن على الجانب التنظيري لما أراد بلوغه وتحقيقه وهو علم السرد، وقبل الحديث عن هذا العلم، نحاول تقديم تعريف بارت نفسه للبنيوية، فـ"في مقال نشر عام 1967م في الملحق الأدبي لجريدة"تايمز "عرّف بارت البنيوية على أنها طريقة لتحليل المنتجات الثقافية تجد منبعها في مناهج اللغويات" ، وفي"مقالات نقدية"يوضح أنه"انكب على سلسلة من التحليلات البنيوية كانت تهدف جميعها إلى تحديد عدد من اللغات غير اللغوية"فمن خلال معالجتها للظواهر باعتبارها نتاجات لنسق مضمر من القواعد والتمييزات، تستمد البنيوية من اللغويات مبدأين أساسيين:

- أولا: أن الكيانات الدالة لا تمتلك جوهرا وإنما تتحدد من خلال شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية على السواء.
- ثانيا: إن تفهم الظواهر الدالة، يعني وصف نسق القواعد الذي يجعلها محتملة في التفسير البنيوي لا يسعى للبحث عن أسباب أو سوابق تاريخية، بل إلى مناقشة بنية ودلالة موضوعات أو أفعال معينة من خلال ربطها بالنسق الذي تعمل في إطاره.[2]وهذا ما سنعمل على إيضاحه في المبحث الثاني.

1- جوناثان كولر، رولان بارت، مقدمة قصيرة جدا، تر: سامح سمير فرج، مر: محمد فتحي خضر، ط1، (القاهرة، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016)، ص71.

2- نفس المرجع، ص 71.

يقول بارت: "لكي يضع المرء للقصص اللامتناهية وصفا وتصنيفا، فإنه يحتاج إلى نظرية.. وإذا ثمة عمل يج أن ينشغل به أولا، فإن هذا العمل يجب ان يكون في البحث عن النظرية وعن وضع مخطط لها، ويمكن للإعداد لهذه النظرية ان يكون عظيم اليسر إذا التزمنا منذ البادية بنموذج يمنحها مصطلحاتها الأولى، وأول مبادئها، وأما في الوضع الراهي للبحث، فيبدو ومن الحكمة أن تجعل اللسانيات نفسها نموذجا أساسيا للتحليل البنيوي للسرد"فقد شكلت اللسانيات المصدر الذي اعتمده بارت في التقعيد لمشروعه ، ويقول عن هذا "عبد الكبير الشرقاوي": "معلوم ان رولان بارت كان من المساهمين الأوائل في تأسيس المطب النظري والوضع العلمي في دراسة الأدب لتجاوز ممارسة كانت تتراوح بين نقد تقويمي او انطباعي لنصوص الأدب، ودراسة خارجية لمحددات النص مستمدة من علوم إنسانية أخرى أو من نظريات عامة فلسفية أو نفسانية أو تاريخية، إن نظرية الادب لابد أن تقوم على أساس نظري علمي مستقل، لكن في انتظار تحقيق هذا المطلب العسير، ستؤمن البنيوية الإطار الفلسفي والمنهجي، في حين أن اللسانيات ستكون هي النموذج الإجرائي، لا سيما أن النص الأدبي هو قبل كل شيئ إبداع لغوي"[1] وأراد بارت أن يطبق هذه المبادئ ويختبر هذه النظرية على القصة أو المحكي، لأن رؤيته لها كانت رؤية حضارية وثقافية وذات فعالية في تاريخ الشعوب، ودعا إلى الاهتمام بها لأن"القصة ليست مجرد إشباع رغبة أو ميل، إنها بالتأكيد عمل مقصود لذاته، وهذا ما يجعل منها فنا تخبر معماريته عن معمارية العقل الكامن فيه، وذوقا تكشف رفاهته ودقته عن رهافة ودقة الأمة التي ينتمي إليها الفنان، ومعنى يفضح سره الكاتب وألق المجتمع الذي يكتب له، والقصة بهذا المعنى واجهة الشعوب ومرآتها، وهي المكتوب الذي يصور أدق سماتها وخصائصها، وهي أيضا تلك اللوحة الناطقة التي يرى فيها الإنسان رسم انعتاق الذات من أحاديتها، وتحررها من فرديتها وانعتاقها من سجن رؤيتها الضيقة، ودخولها إلى رحاب تعدديتها ومطلقها، وإذا كان الإنسان يرى في القصة هذا، فلأنها مثال حي على انفتاح الأنا فنا ودخولها إبداعا في حوار مع الأنت الذي يتمثل في الآخر، الآخر البعيد، القريب، الحاضر، الغائب، المتزامن تاريخا، الآني حضورا، والآتي مستقبلا، وبكل اللغات وفي كل الأوطان"[2]، فالقصة إذا ذات قيمة علمية مهمة لمحوريتها في هوية الشعوب،

1- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 05.

2- رولان بارت، مدخل الى التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر العياشي، ط1، (حلب، سوريا، مركز الإنماء الحضاري، 1993)، ص 8.

ونظرا لقيمتها التاريخية يقول عنها بارت"إنها تبدأ مع التاريخ الإنساني نفسه، فلا يوجد شعب لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في أي مكان من غير قصة، فلكل الطبقات، ولكل المجموعات البشرية قصصها... ولأن القصة كونية، ومتجاوزة للتاريخ والثقافة، فإنها كالحياة، حاضرها هنا"[1]، فهي حسبه ذات راهنية وحضور وفعالية في الثقافة الإنسانية، واطلاقا من هذا المحورية، يطرح"منذر العياشي"تساؤلا مهما: إذا كان للقصة هذا الحضور، فإلى أي شيئ يمكن أن نعزوه؟أإلى مجرد رغبة في القص؟ أم إلى مجرد لهو بالكلام؟ أم إلى مجرد إشباع ميل نفسي؟هل يمكن ان نعزو هذا إلى أن الشعوب تفعل ذلك لتسجل أخبارها ووقائعها وتبرز مكانتها وما يعتلج في صدورها، ولتنقل لونا من ألوان الكلام المعبر عن روحها؟"[2]، ولهذا، وإدراكا من بارت لقيمة المحكيات والمرويات والقصص ، عمل على وضع نظرية أدبية تنطلق من البنيوية الألسنية في محاولة لكشف بنيتها وتفسير مضامينها، ورأى بان الكتاب المقدس يحمل في توليفة أدبية قصصية تصلح لأن تكون أنموذجا لتطبيق مبادئ النظرية، هاته المحاولة هي المتمثلة في تأسيس فرع معرفي مستقب قائم بذاته سماه علم السرد، أو علم التحليل البنيوي للمحكي، وعن هذه المهمة يقول بارت: "مهمتى هي عرض ما يسمى الآن عموما (التحليل البنيوي للسرد)... وما يمكن في الوقت الراهن تسميته بهذه التسمية هو سلفا مجموعة بحث، وليس بعد علما ولا حتى فرعا للمعرفة بالمعنى الدقيق... لا يوجد حتى الآن علم السرد، أرغب في هذا التوضيح وأحاول بذلك تلافي بعض خيبات الأمل" [3] ، ولهذا اصطلحنا على عنوان هذا المطلب بالمحاولة، فهو مشروع لم يتكمل بعد، بل يحاول بارت أن يضع معالمه وأسسه اتمدا على مجموعة من النصوص التي يرة فيها بنية قصصية، من بينها نص أعمال الرسل، كما أنه أشار إلى جهود السابقين عليه الذين أشرنا إليهم والمتمثلين في المدارس الثلاثة إذ يقول: "منهجيا وليس تاريخيا، يكون منشأ التحليل البنيوي للسرد هو بالطبع التطور الأخير للسانيات المسماة باللسانيات البنيوية" [4]، إذ عمل على تطويرها دون ان ينكر جهود سابقيه، بل أثنى على أعمالهم وأفاد منها، ومع ذلك فهو يتكلم عن عدم اكتمال مشروعه وتشتته، وأنه يعاني من خيبات الأمل بقوله: "هذا البحث يتعرض حاليا لنوع

1- نفس المرجع، ص26.

2- نفس المرجع، ص07.

3- التحليلي النصي، مرجع سابق، ص 22.

4- نفس المرجع، ص23.

من التشتت، وهذا التشتت هو بمعنى مقوم من مقومات هذا البحث... فليس بالإمكان معالجة التحليل البنيوي للسرد باعتباره فرعا من المعرفة مثل البيولوجيا ولا حتى علم الإجتماع: فلا إمكان لوجود عرض دي قواعد تشكل نظاما، وليس بإمكان باحث ان يتحدث باسم باحث آخر، ...لما كان الأمر متعلقا بدراسة لغة ثقافية، وأعني لغة السرد، فالتحليل يكون متأثرا مباشرة وعليه أن يُتفطن لهذه المسألة لمنطوياته الأيديولوجية، فالبنيوية ليست مدرسة موحدة، وحتى البنيوية الفرنسية، إذ توجد انقسامية بنيوية... أقول هذا لأتلافى قدر الإمكان خيبة الأمل وحتى لا أحرّض على تعليق آمال مفرطة في منهج علمي لا يكاد يكون منهجا، وليس بالقطع علما"[1]، وهذا ما تكلمنا عنه في البداية حول تعدد زوايا النظر وتشعبها واختلاف زوايا الدراسة حتى ضمن حقل معرفي واحد، وقد تحدث بارت عن مشكلة رئيسية سنعود إليها في آخر مطلب من هذا البحث، والمتمثلة في التساؤل التالي: هل البنيوية مذهب أم منهج؟ أم مجرد طريقة بحث؟ أم علم متكامل قائم بذاته؟

يقول بارت في تحديده لبعض معالم منهجه: "إذا كانت الأهداف الأساسية للتحليل البنيوي والسيميائي للنص هي بناء نظرية شاملة، أو لغة بالمعنى الذي أعطاه دوسوسير للكلمة (وقد أشرنا إلى تعريفه للغة سابقا)، أو نحو عام، لذلك كانت النصوص المفردة العينية مجرد أمثلة أو متن يتأسس عليه، وانطلاقا منه، التشييد النظري، اعتمادا على منهج افتراضي-استنباطي، ...فذلك كان للتمثيل والبرهنة على صوابية النظرية وقوتها" [2]، ولهذا سنعمل على كشف منهج بارت انطلاقا من نص أعمال الرسل، وبيان قدرة نظريته في التحليل من عدمها، وبالتالي كان لزاما على بارت"أن يتجه إلى النص، وأن لححل نصوصا لذاتها، لينجز في المرحلة الأولى تطبيقا للنظرية، وليمارس في مرحلة ثانية القراءة الإنتاجية التي لا تخضع لمقروئية النص، بل تحاول تفكيك انساقها المكونة لنسيجه والكشف عن اشتغاله الدلالي المتواصل، والتطبيقات التي أنجزها هي أساسا تحليل لنص من الإنجيل، ولنص من التوراة... وهذه التحليلات تعبر عن طريقته الفذة في القراءة والتحليل والكتابة المتحررة من هيمنة الخطاب التنظيري واستخدام إبداعي لمنجزات النظريات البنيوية واللسانية والسردية، زاختبار للنظرية على أرضية التطبيق العملي واختبار بارت لبارت نفسه" [3]، خاصة مع ما واجهه الباحثون من صعوبة

1- نفس المرجع، ص25-24، بتصرف

2- نفس المرجع، ص12.

3- نفس المرجع، ص06، بتصرف.

أمام العدد اللامتناهي من القصص، فبدل أن يدرسوها وفق منهج وصفي وصنيفي ينطلق من البنية السردية نفسها للقصص، جاؤوا بوجهات نظر من خارج بنية القصص السردية فكانت كما يرى بارت، رؤى تاريخية، نفسية اجتماعية، اثنولوجية، جمالية...إلخ، فصارت دراسة القصة بهذا وفقا لتلك الرؤى، لا دراسة للقصة ذاتها" [1]، فكان بارت يرى ان هذا اختزال ينبغي القضاء عليه وإعطاء المحكي قيمته الحقيقية.

ونحاول أن نرسم الخطوط العريضة لعلم السرد والهدف منه انطلاقا من رؤية بارت، فالدراسة البنيوية للأدب تتصف بسمات أربع هي:

- أولا: هناك محاولة لوصف لغة الأدب باستخدام مصطلحات مأخوذة من علم اللغويات لإبراز خصوصية البنى الأدبية، إذ يستخدم بارت كثيرا مقولات لغوية تتضمن نوعا من الإحالة إلى السياق لضمير المتكلم والمخاطب، تعبيرات مثل: هنا، هناك، وبعض أزمنة الفعل التي لا تتضمن أي إحالة، هذ التمييز يساعده في تحليل بعض جوانب التقنية السردية، لكنه يستخدم مقاربة انتقائية للغويات لا تسعى إلى إنجاح شروحات لغوية منهجية كما يفعل بعض البنيويين، وسنضرب نماذج عن هذا في الإجراء التطبيقي في المبحث الثاني.
- ثانيا: تطوير "علم سرد"يهدف إلى إبراز مكونات السرد وتوليفاتها الممكنة في مختلف التقنيات السردية، أي الاهتمام بخصوصية الحبكة وعناصرها الأساسية وإمكانية التوليف بينها، ما هية البنى الأوية للحبكة، والطريقة التي يتم بها إنتاج الإكتمال وعدم الإكتمال، وكتب حولها بارت وأكد على دور الحبكة في تعزيز معقولية الكتابة والآثار التي يمكن ان ترتب عليها خلخلة التوقعات السردية قائلا"من المستحيل غنتاج سرد دون الإحالة إلى نسق مضممر من الوحدات والقواعد"[2]
- ثالثا: إضافة إلى الدراسة المنهجية للسرد، يسعى البنيويون إلى توضيح كيف ان المعنى يعتمد على شفرات تنتجها الخطابات السابقة لثقافة ما.

1- مدخل للتحليل البنيوي للقصص، مرجع سابق، ص 13، بتصرف.

2- رولان بارت، مقدمة قصيرة جدا، مرجع سابق، ص 72 بتصرف.

- رابعا: تروج البنيوية لتحليل دور القارئ في إنتاج المعنى والطريقة التي تنتج بها الأعمال الأدبية، وهذا ما يعرف بنظرية موت المؤلف عند بارت، وسنشير إليها في المبحث الثاني.[1]

"لا شيئ خارج النص"كما تدعو البنيوية، ولهذا توجه بارت إلى النص وذلك"باستهداف لعبة النص وممارسة الكلمات من خلال تحليل محكيات دينية أصلها شفوي أو نصوص اتباعية، مسجلة انتقاليا وعبورا مما أسمته بالتحليل البنيوي للمحكي نحو التحليل البنيوي للمحكي، نحو التحليل النصي للمحكي من وجهة نظر معينة، أو مفصلة للنهجين من وجهة نظر ثانية تتجلى حسب هذه الأعمال المرتبة تاريخيا التي ألفها بارت:

- التحليل البنيوي للمحكي والذي يمثل أنموذج بحثنا والمتضمن لنص أعمال الرسل وكتب سنة 1969م.
- س/ز سنة 1970م.
- العراك مع الملاك، تحليل نصي لسفر التكوين 1972م.
- تحليل نصي لحكاية إدغار ألان بو سنة 1973م، وقد اتسمت هذه الأعمال بممارسة القراءة الصفرية والتفصيلية التي تتبع حبات معاني السسلة المتكلة للنص انطلاقا من صعوباتها وتعقيداتها ولبسها وغوضها بناء على مبادئ ووفق منهج.[2]

قام رولان بارت بتطوير مدخله في التحليل البنيوي للمحكي في اتجاه آخر هو التحليل النصي للمحكي، مشروع أمكن اعتباره أولا، عملا تطبيقيا وممارسة تحليلية، ثانيا، منهجا دقيقا وواضحا، حتى لا نقول تقنية، ثالثا، يستند إلى نظرية دلائلية تحكم العلاقة بكلا الطرفين وقد تلافى غالبا بارت اسعمال هذه المصطلحات الكبرى، وتوخى من حيث الموضوع الخاص تحليل النص السردي، الغربي، المكتوب أساسا مقابل السرد الشفوي والخرافي، وشق سبيلا آخر داخل دلائلية الدلالةباعتباره مفهوم الإيحاء المصنف في دلائلية لويس هلمسليف غير علمية وسيلة للتحليل، إذ يدمج بارت المحكي رأسا في مفهوم للنص ينبي تعريفه له على تناقضات جذرية بين "ما ليس هو"و"ماهو"، هادفا من وراء ذلك تفكيك مركزية الخطاب السائد:

1- نفس المرجع، ص73، بتصرف.

2- رولان بارت، س/ز، تر: محمد بن الرافة البكري، ط1، (بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2016)، ص19-20، بتصرف.

- فهو نص بمفهوم حديث وراهن، وليس عملا أدبيا.
- ممارسة دالة، وليس نتاجا جماليا.
- بنينة: أي فضاء لسيرورة الدلالات واشتغالها، وعملية إنتاج للمعاني، أي إعناء قيد التكون والإشتغال والإنبناء، وليس بنية أو نتاجا مكتملا، منتهيا، ناجزا، حصره الإمضاء أغلقته كلمة النهاية.
- عمل ولعبة وليس موضوعا كأنه شيئ.
- حجم من الآثار المتنقلة، وليس مجموعة دلائل مغلقة، ذات معنى يلزم البحث عنه.
- دال وليس دلالة.

وبالتالي سينصب نشاط التوصيف على عملية تبنين النص وليس على استنباط بنية له، فلا يكمن هدف التحليل في رسم البنية المنتهية والمغلقة، وإنما تتبع البنينة في كثافتها وحركيتها، وفي لا انتهائها عند حد معين، وعدم توقفها لدى قارئ دون غيره، وصفها كنشاط متنقل يسافر عبر القراء في كل زمان ومكان.[1]هذه المفاهيم التي تبدو صعبة ومعقدة ستتضح اكثر في المبحث الثاني الذي يدرس الخطوات المنهجية الإجرائية ويحدد طرق تحليل النص مع التمثيل له.وبهذا يزول بعض الغموض.

المبحث الثاني: التحليل البنيوي لنص أعمال الرسل عند رولان بارت:

وبعد العرض الموجز لتاريخ النظرية البنيوية، والمشروع الذي أراد بارت الوصول إليه، نصل الآن الجزء التطبيقي للنظرية في دراسة النص الديني، ومرجعنا في ذلك هو الانموذج الذي تخذه بارت كمتن للتطبيق الإجرائي لنظريته وهو سفر أعمال الرسل الفقرة 10-11 :

المطلب الأول: منهجية"بارت"في التطبيق الإجرائي لمبادئ التحليل البنيوي للسرد وخطواته:

سنخصص هذا المطلب في الحديث عن الأفكار الرئيسية لخطوات المنهج البنيوي عند بارت، وأسس منهجه الجديد ومعالمه، أي الإشارة إلى الإجراءات النظرية والخطوات والأدوات التي يمكن من خلالها قراءة المحكي والإشتغال عليه، وهذه المحددات تبين طريقة التحليل النصي البنيوي لنص اعمال أعمال الرسل الذي يمثل انموذج هذا البحث الذي يعتبر بالنسبة لبارت محاولة لرسم معالم مشروعه ووضع ملامحه الأولى لتفادي خيبة الأمل، وقبل أن ينتقل بارت إلى التطبيق الإجرائي لمبادئه، عمل

1- المرجع السابق، ص22-23، بتصرف.

على تحديد هذه الخطوات من ناحية نظرية، وقام بتقسيم الأدوات والطريقة، وأكد على أهمية المعرفة بهذه المبادئ قبل قراءة مشروعه التطبيقي والتي نحاول أن نلخصها بإياجز شديد، وقد سماها بالمبادئ العامة وترتيبات التحليل.

أولا: مبدأ الصورنة (التجريد):

مشتق من التعارض بين اللغة والكلام عند دوسوسير، فكل محكي في العالم رغم لا نهائيته ظاهريا هو الكلام بالمعنى السوسيري، والإنعكاس العملي لمبدأ التجريد الذي يريد بارت إقامة لغة السرد عليه لا يمكن إجراءه من خلال تحليل نص واحد في ذاته، فالمحلل الكلاسيكي للسرد لا يهتم بنص منعزل، ولهذا يختلف التحليل البنيوي للسرد عن شرح النصوص، فالنص هو كلام يحيل على لغة، ورسالة تحيل على نسق، وإنجاز يحيل على كفاية، وهي مصطلحات لسانية، فالتحليل البنيوي للسرد هو في أساسه وتكوينه تحليل مقارن، بحث عن أشكال، لا عن مضمون، ففي نص أعمال الرسل لن يكون هنالك شرح للنص، بل مواجهة هذا النص مثل باحث يجمع مواد لتشييد قواعد نحوية، فعالم اللسانيات مضطر لجميع جمل، متن من الجمل، ولتحليل السرد نفس المهمة، جمع محكيات، متنا من المحكيات ليستخرج منها بنية.[1]

ثانيا: مبدأ الملائمة:

ويتأصل هذا المبدأ في الفونولوجيا التي تدرس إثبات الفروق بين الأصوات بالقدر الذي تؤثر به هذه الفروق في الأصوات على المعنى، فهو يبحث عن فروق في الشكل تشهد عليها فروق في المضمون، وهذه الفروق قد تكون ملائمة او غير ملائمة، وهي عكس الفونوطيقا(علم الأصوات)، الذي يدرس صفة الحرف الذاتية الفيزيائية والسمعية.

المعنى في علم السرد لا يهتم بالمدلول المعجمي، بل على الإرتباط المتبادل داخل النص وخارجه، فهو ترابط متبادل، منطلق نسق، ما يتيح لنا الإنطلاق نحو نسق وما يستلزم نسقا، ولا تؤثر الترجمة على ذلك لأن المعنى البنيوي يبقى نفسه، وقد ذرب على ذلك بمثال من سفر اعمال الرسل الذي يعالج فيه انموذجا نسقيا يتجلى في التعارض بين أطراف ثلاثة: أهل الختان/غير المختونين/الذين يخافون الله(نسق محايد)، فالنموذج هو الملائم لا الجمل التي تشكله، لكن الترجمة قد تؤثر

1- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 26-27، بتصرف.

على المعنى البنيوي لأنها تغير توزيع الأنساق والوظائف[1]يجب الحذر مما دونه النص، فكل ملفوظ مهما كان عاديا أو تافها يجب ان يُقوَّم بمصطلحات البنية، أي التفكير فيما سيحدث لو لم تدون السمة او كانت مختلفة، وهو ما سماه بالفضائحي المنطقي والسردي، وهذا يدل على شجاعة لتحمله.[2]

ثالثا: مبدأ التعددية:

يقول بارت: "إن التحليل البنيوي للسرد على الأقل كما أتصوره لا يحاول إثبات المعنى الواحد والوحيد للنص، بل يحاول حتى إثبات أحد معاني النص، إنه يختلف أساسا عن التحليل الفيلولوجي لأن التحليل البنيوي يهدف إلى رسم ما قد اسميه بالموقع الهندسي، موقع المعاني، موقع ممكنات النص"ويقصد بذلك أن على المحلل في علم السرد أن يبحث على تعدد للمعنى، فالتحليل في بحثه عن المعنى يعتبره أحد الممكنات فهنالك معنى خفي وجب كشفه لأن النص لا يستلزم وجود معنى واحدا، ويعتبره بارت كينونة الممكن، أي كينونة التعدد.[3]

وبعد أن حدد بارت هذه المبادئ الثلاثة العامة لنظرية علم السرد، أعطى ملاحظة عامة حولها، فهو يرى بأن التحليل البنيوي ليس منهجا للتأويل الباطني للنص، والبحث عن سره، وبهذا فهو يختلف تماما عما يسمى بالنقد الأدبي الذي يعتبره نقدا تاويليا، فالتحليل البنيوي للنص مختلف تماما عن أنماط النقد هذه، لأنه لا يبحث عن سر النص، لأن كل جذوره ظاهرة، وذكر بان أي نص يحتوي على معنى ودلالة أحادية وعلى سيرورة تاويلية باطنية، وتمم معالجته مثل نسق من بين الانساق الأخرى في النص، يعرضها النص نفسه بتلك الصفة.[4]

ولكن، كيف يتم ذلك؟يتم عبر مجموعة من الترتيبات العملية، وبهذا ينتقل بارت من التنظير إلى التطبيق، ويبين طريقة الإشتغال في النص، ولكنه تحرز من استعمال كلمة منهج، لعدم تيقنه من اكتمال المنهج أم أنه مجرد طريقة في البحث، والهدف من ذلك هو"إنتاج عملية تبنين النص وليس على استنباط بنية له، لايكمن هدف التحليل في رسم البنية المنتهية والمغلقة، وإنما تتبع البنينة في

1- للإطلاع على تفاصيل المثال.، انظر كتابه التحليل النصي للسرد ص 29-30
2- نفس المرجع، من ص 27الى ص 31 بتصرف.
3- نفس المرجع، 31-32، بتصرف.
4- نفس المرجع، ص 32.

كثافتها الحياتية وحكريتها، وفي لا انتهائها عند حد معين، وعدم توقفها لدى قارئ دون غيره، وصفها كنشاط متنقل يسافر عبر القراءة في كل زمان ومكان...ولإنجاز عملية التحليل هذه، يقترح التحليل النصي، اتباع تدابير إجرائية، يعني نوعا من قواعد العمل، متلافيا عن قصد ان يسميها بارت بالمبادئ المنهاجية.[1]

ونحاول تلخيص هذه القواعد بإيجاز شديد:

أولا: تقطيع النص إلى أجزاء كلامية او شذرات أو وحدات قرائية

يقول بارت: "...هذا التقسيم يمنحنا شذرات النص التي سنشتغل عليها، والواقع أن هذا العمل قد أنجز فيما يخص الإنجيل، وحتى الكتاب المقدس بأجمعه، لأن هذا الأخير مقطّع إلى آيات، إن الآية وحدة ممتازة لاشتغال المعنى، ولأن المسألة تتعلق بفرز المعاني والترابطات المتبادلة، فإن تركيب الآية ذو حجم ممتاز، ويهمني جدا معرفة من أين جاء هذا التقطيع إلى بيات، وهل كان مرتبطا بالطبيعة الإستشهادية للقول؟وما الروابط الدقيقة، الراوبط البنيوية، بين الطبيعة الإستشهادية للقول الإنجيلي والآية...وقد اقترحت لهذه الشذرات من الملفوظات التي يجري الإشتغال عليها تسمية "وحدة قرائية، والآية بالنسبة لنا هنا هي وحدة قرائية"[2]، فالتقطيع يتم باعتباطية يرز فيه على الدال، أما التحليل سيتناول المدلول، وأما الوحدة القرائية فتشمل بضع كلمات أو بضع جمل، فالحجم يتعدد بكثافة الإيحاءات والمطلوب أن لا تتضمن الوحدة أكثر من ثلاثة أو أربعة معان، كما يقوم المحلل بملاحظة الإرتباطات بين الوحدات والتي ترقم تسلسليا، والتحليل يمكنه اتخاذ الإتجاهات دون اهتمام بخطّية النص ولا السيرورة المنطقية الزمنية للسرد، كلغز يطرح لا يوجد حله إلا بعد عشر وحدات، ففضاء النص يجري تقسيمه إلى فضاءات صغيرة محددة يلاحظ فيها المحلل اشتغال المعاني وتفاعل الانساق.[3] فالوحدة القرائية مقطع أو حقل يراقب فيه المحلل تنوع المعاني، وكلما قل عدد المعاني داخل كل وحدة كان مفيدا جدا له[4]، وهذا ما سيتضح إجرائيا في الجزئية التي سنتناول فيها الوحدة القرائية بالأمثلة التي اعتمدها بارت في نص أعمال الرسل.

1- س/ز ، مرجع سابق، ص 24، بتصرف.

2- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 33.

3- نفس المرجع، ص 13-14، بتصرف

4- س/ز ، مرجع سابق، ص 23.

ثانيا: استخراج الأنساق والإيحاءات:

يقول بارت: "نحاول وحدة قرائية بعد وحدة قرائية، آية بعد آية، جرد المعاني والترابطات المتبادلة ومنطلقات الأنساق الحاضرة في تلك الشذرة من الملفوظ، وسأعود إلى هذا العمل على بعض الآيات" [1]، وسنعمل على التمثيل لذلك من خلال عمله، والمقصود من هذه العملية هو رصد التحليل في كل وحدة قرائية مجموع إيحائية، أي معانيها الثانية[2]، ويذكر "عبد الكبير الشرقاوي" أن بارت يؤكد باستمرار أن النص ليس له معنى وحيد أو معاني مترابطة منطقيا وسببيا تفضي إلى معنى نهائي، والتحليل ليس استهلاكا للنص، أي تلقيا سلبيا لمعنى موجود سلفا ما على القارئ أو المحلل التوصل إليه"، فالتحليل النصي عنده يحاول تفجير الوحدة والإنغلاق والكثافة ذات الكثافة اللاهوتي للكشف عن اشتغال النص وعن تفاعل الأنساق والإيحاءات لأنه ذو نسيج تشكل من تضافر عدد من الأنساق" [3]، فما هو دور المحلل إذا؟فهو لا يبحث عن بنية النص ولا معناه النهائي ومدلوله الاخير، لأن هذا عمل القراءة التأويلية، بل يبحث عن البنينة، أي تلك الحركة الدائبة التي تكون النص وتفتحه على تفاعل مستمر مع النصوص الأخرى ومع الأنساق الثقافية، وهذه الحكرة يسميها بارت بالدلالية، أي العملية التي تجعل النص فضاء لتفاعل المعاني، تودلها المستمر اللامنتهي التي يريد المؤلف أن يوقفها ويضع القارئ ضمن تسلسل زمني منطقي مغلق.[4]فالأنساق إذا تقوم على الإيحاء بوجود معان ثانية معناها الأول هو المعنى الموجود في اللغة المتداولة ولغة المعاجم، والكاتب يستعمل اللغة الثانية، والمعاني التي لا تخضع لقواعد إنتاج، ومن هنا تاتي صعوبة تحليل لغة الأدب واستعصاء النص على النظريات التحليلية.[5]

- **التحليل والتحديد"التنسيق"**

يقول بارت: "إثبات المترابطات المتبادلة بين الوحدات والوظائف المكتشفة التي غالبا ما تكون منفصلة أو متكتلة أو متشابكة أو أيضا مجدولة لأن النص كما يدل على ذلك اشتقاق اللفظة هو

1- التحليل النصي، مرجع سابق، ص33.

2- س/ز ، مرجع سابق، ص 23.

3- نفس المرجع، ص 14 بتصرف

4- نفس المرجع، ص 15بتصرف

5- نفس المرجع، ص 15 بتصرف.

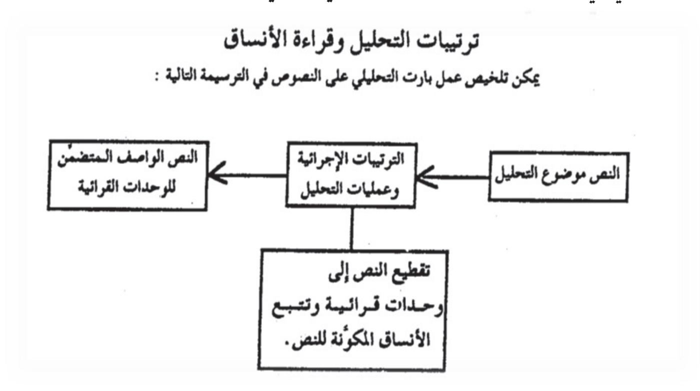
نسيج وجدلية من الترابطات المتبادلة تنزاح عن بعضها بواسطة لإدماج ترابطات متبادلة أخرى، تنتسب إلى مجموعات أخرى، يوجد نمطان كبيرا من الترابطات المتبادلة: داخلية وخارجية"، ثم يضرب مثالا عن هذا بالقول"وهذا مثال عن تلك الداخلية في النص: إذا قيل لنا إن الملاك قد ظهر، فإن الظهور طرف يكون الطرف المترابط به هو بالضرورة الإختفاء، إنه ارتباط متبادل داخلي–نصي، لأن الظهور والإختفاء موجودان في المحكي ذاته، ستكون فضيحة سردية ان يختف الملاك، لابد من تسجيل متوالية : الظهور/ الإختفاء، فهذه هي المقروئية: ان يكون حضور بعض العناصر ضروريا.[1] ويقول عن هذا"البكري" : "الهدف من تحليل تبيان انطلاقات المعاني وانصرافها وسبل سيرها وليس وصولها، فما يؤسس النص هو تداخله مع نصوص أخرى وتشابكه معها وانفتاحه عليها، وليس بنية مغلقة قابلة للمحاسبة بالمعنى التقني، وعليه لابد من للبحث أن يتعود على التعامل مع النص انطلاقا من تفاعل مفهومي البنية المحضورة والتأليف اللانهائي"[2]، وأما"عبد الكبير الشرقاوي" فيعلق على المقصود من هذا أن بارت يميز بين التحليل، أي العمليات الإجرائية في بيان الدلالية في النص عن التحديد، وهو المحددات الخارجية للنص، لأن التحليل النصي يرفض توقف اشتغال النص وتوالد معانيه، فالمحلل ينتج نصا جديدا هو النص الواصف عبر عمليات التحليل وترتيباته التي اجراها على النص الأصلي موضوع التحليل، أي ان القارئ ينتج نصا جديدا، وبهذا المعنى فقد حرر النص الأصلي من قيوده وطفوليته وهيمنة ضغوط المقروئية عليه، فالقراءة عنده هي أساسا اشتغال المعنى وكتابة وإنتاج" [3]، فبارت يتحدث هنا الترابطات المتبادلة الخارجية، وهي أن سمة أي ملفوظ تحيل إلى طابع لشخصية أو مكان أو معنى باطني كما هو حال نص أعمال الرسل الذي يتحدث عن قضية إدماج غير اليهود في الكنيسة المسيحية الناشئة، وهذا ما يسميه بالتناص، أي ان سمة لملفوظ قد تحيل على نص آخر، ولا يقصد بذلك أنها تعني أن النص له مصادر أخرى، بل خفي على نص لانهائي، فمصادر نص من النصوص لا توجد سابقة عليه، بل لاحقة لذلك.[4] وهذا ما سيتضح أكثر فأكثر مع التمثيل التطبيقي.ويرسم لنا "عبد الكبير الشرقاوي"مخططا يوضح فيه هذا الكلام باختصار :

1- التحليل النصي، مرجع سابق 34

2- س/ز ، مرجع سابق، ص 25.

3- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 15-16، بتصرف

4- نفس المرجع، ص 34-35، بتصرف



الشكل رقم 1[1]

وقد حرص بارت في تحليلاته النصية على اختيار متون ونصوص التحليل التي يتوفر فيها شرطان:

- القِصر: مما يتيح له التحكم التام في السطح الدال للنص.
- تمتع النص بكثافة رمزية كافية.[2]

والهدف من هذا هو سعي التحليل النصي لإنجاز قراءة صفرية للنص لصيقة بسيرورته، تفرك حبيبات الإيحاءات والتفاصيل، لا تبحث عن معنى للنص ولا حتى عن معنى ما له، ما العثور على على معنى ما للنص بهدفنا، بل كما يقول بارت"نستهدف أساس ضبط وتحديد مختلف الأشكال والشفرات التي تجعل المعاني والإيحاءات مُمَكَّنة في النص" [3].

وهذه الأشكال تتيح للمعاني إمكان الإنصراف والإنطلاق، وقد صنفها بارت في خمس سماها بالشِّفرات، هي وحدها فقط تخترق المحكي، نلخصها كالتالي:

- شفرة الأحداث: تدرس جميع ما يرصده النص من متواليات لفظية، أي ما ينبني عليه المحكي من أفعال وسلوكات وأحداث تبدي ترابطا منطقيا وتتابعا سليما.

1- التحليل النصي، ص 11.

2- س/ز ، مرجع سابق، ص 24.

3- نفس المرجع، ص 24.

- شفرة الإحالات: شفرة الثقافة الضامة لكل المعارف البشرية، تتشعب إلى فروع، منها شفرة للعلم، للبلاغة، للتأريخ، ..هدفها تحليل استشهدات النص الظاهرة والخفية.
- شفرة التلغيز والحل: شفرة التأويل، موضوعها هي الوحدات المتواليات النصية، التي تضع اللغز وتصوغه وتبحث له عن حل بعد إرجاءات النص يعمل النص على بيانها وإخفائها، حتى تكشف الحقيقة التي تعلن عن موت الحكاية.
- شفر الرمز: هو السمة اللغوية التي تنقل الجسد من مكانة تاركة فجوة يتبين من خلالها مشهد آخر غير مشهد التحدث على الصورة التي تعتقد أننا نقرأه بها، سماها بارت بالحقل
- شفرة السيمات: تهتم بفكر صوت الشخص، أي دراسة المدولالت الخاصة بطبائع الشخص في النصنيقوم بارت بضبطهانتركز على علاقة متحدث بها في النص، وعلى كل علاقة متبادلة فيه، ولا تشمل جميع معاني النص.[1] وكل هاته الشفرات ستتصح من خلال التطبيق الإجرائي كما نؤكد منذ بداية هذا البحث.

كيف يطبق بارت هذه الإجراءات العملية؟وعلى أي منهج يعتمد؟وفي محاولة الإجابة عن هذه الإشكالية نجد أنفسنا مضطرين إلى نعود مع بارت في طرح إشكالية شهيرة لديه مفادها: أين يتم البحث عن بنية القصة؟مع كثرة القصص التي لا حد لها واستحالة إحاطة الباحث بها، فمشكلة المنهج قد حاول علاجها انطلاقا من منهجين، الأول واعتبره صحيحا غير انه مستحيل، أما الثاني فوصفه بالممكن إلا أنه عصي على التطبيق.[2] وسنعتمد على ما طرحه "منذر العياشي" في عرض منهج بارت باختصار شديد:

- المنهج الأول وهو الإستقرائي inductif ويقوم على أربعة نقاط هي:
- يقوم على سلسلة من العمليات الإدراكية انطلاقا من التوصيف، والهدف هو العبور من قضية خاصة إلى أخرى أكثر عموما، فهو منهج تقوم طريقة البرهان فيه على الإنتقال من الخاص إلى العام، ومن الجزئي إلى الكلي.
- يقر الإستقراء بالتجربة المباشرة والمعاينة المحسوسة لكل فرد من أفراد النوع موضوع البحث والتجربة.

1- س/ز ، مرجع سابق، ص 25-26، بتصرف

2- مدخل الى التحليل البنيوي للقصص، ص 15-14، بتصرف

- يعطينا بيانا عن شيئ مستقل بذاته غير انه لا يقدم القواعد الكافية للمقارنة أو النمذجة لإجراء التعميم.
- الإجراء الإستقرائي لا يُستخدم غلا في إطار استنباطي يقوم على تعميم أكبر، وهذا المنهج حسب بارت مستحيل للعدد اللامتناهي من القصص، ولدراسة البنية والكشف يحتاج هذا إلى استقصائها جميعا، ولهذا يطرح السؤال الشهير: ما يمكن للمرءِ أن يقول عن التحليل السردي وهو يواجه ملايين القصص؟.ولهذا أقر بارت باستحالة تطبيق الإستقراء في اللسانيات لدراسة المحكيات ودعا إلى تظيف منهج الإستنباط.[1]
- المنهج الثاني وهو الإستنباطي deductif والقائم على ثلاثة نقاط هي:
- مجموعة عمليات إدراكية تقود لاستخلاص نتائج دقيقة، وسمته تظهر في بنائه الذي يتجنب الإعتماد على التجربة.
- حسب زميل بارت وهو"غريماس"، هنالك نوع من الإستنباط والمسى بالإستنباط الإفتراضي، الذي يكتفي بافتراض أن القضايا حقيقية، وهو المتين في السيميولوجيا واللسانيات.
- ينتهي الإستنباط إلى بناء نظرية تهدف إلى توفير الجهد أول بذل جهد أقل.[2]
- هنالك نقطتين يمكن من خلالهما تحديد طريقة توظيف بارت للإستنباط ومقدار استفادته منه:
- نقطة منهجية تتعلق باتباعه لمنهج الإستنباط وخطواته وطريقته تتضح من خلال:
- الباحث أمام عدد كبير من القصص وهو مضطر لابتكار أنموذج افتراضي للوصف، أي توظيف منهج الإستنباط الوصفي لدى غريماس
- على الباحث النزول رويدا رويدا نحو الأنواع المشتركة معه وتبتعد عنه في نفس الوقت.
- التحليل وسيجد في هذه المطابقات تعددية القصص وتنوعاتها التاريخية والجغرافية والثقافية ويكون مزودا بأداة وحيدة للوصف.
- النقطة الثانية وتظهر طريقة استخدامه للمنهج ومقدار استفادته منه، وعنده أنه لا يمكن للباحث وصف القصص الكثيرة دون قبضه على نظرية، وهذا ما يجب عليه أن يشغله أولا

1- نفس المرجع، ص 15-16وص18، بتصرف

2- المرجع السابق، ص19، بتصرف.

، ويلتزم بنمط يمنحها مصطلحاتها الأولى، وأول مبادئها، ولتعدد الأنماط، كما دعا إلى جعل اللسانيات نفسها نمطا للتحليل البنيوي للسرد.[1]

ويعد بارت هو المنتج لنظرية موت المؤلف ومن اعماله تروج البنيوية لتحليل دور القارئ في إنتاج المعنى والطريقة التي تنتج بها الأعمالُ الأدبية آثارَها من خلال مقاومتها لتوقعات القراء أو التطابق معها، هذه المسألة، التي طرحها بارت في مناقشته لأعمال روب جرييه، تتخذ شكلين اثنين في كتاباته اللاحقة؛ فأولًا: هناك الزعم بأن الكلمات تكتسب معنًى فقط من خلال علاقتها بأعراف خطابية وعادات قراءة ينبغي دراستها، إنْ أردنا أن نفهم البنية الأدبية؛ وهكذا يغدو القارئ مهمًا باعتباره مستودع الأعراف، والوسيط الذي يتولَّى تطبيقها، تركز الشعرية على معقولية العمل وتستحضر القارئ ليس كشخص أو ذات، لكن بوصفه دورًا؛ أي تجسيدًا للشفرات الأنا التي تتناول النص هي كثرة مؤلَّفة من : التي تجعل القراءة ممكنة، وقد كتب بارت نصوص أخرى، من شفرات لا نهاية لها، أو بصورة أدق، شفرت مفقودة فُقد أصلها فالذات يتم تصورها بوجه عام على أنها امتلاء أُثْقِلُ به النص، لكن هذا الامتلاء الزائف هو في حقيقته ليس إلا أثرًا لكل تلك الشفرات التي أتألف أنا منها، بحيث إن ذاتيتي، في التحليل الأخير، لها عمومية الصور النمطية. إن ما يراهن عليه العمل الأدبي في الأدب بوصفه عملًا هو تحويل القارئ من مستهلِك للنص إلى منتِجٍ له، لقد قادت البنيوية عملية ظهور القارئ كشخصية محورية في النقد وإذا كان، كما يقول بارت: مولد القارئ ينبغي أن يقابله موت المؤلف"، الذي لم يَعُد يُنظَر إليه باعتباره مصدر المعنى وصاحب القول الفصل فيه.[2]

ونختم هذه العجالة التي حاولنا فيها الإلمام بالخطوط العريضة لعلم السرد وخطواته المنهجية وآلياته والأسس التي وضعها بارت من أجل قراءة المحكيات وفق البنيوية، على أن تكون بقية المطالب إسقاطا عمليات وإجرائيا لها ولتوضح الإبهام والغموض الذي تتسم به مصطلحات بارت رغم أننا عملنا على اجتناب ذلك على قدر المستطاع، كما نقر بأن هذه العجالة تحتوي على نقص كبير وبحاجة إلى المزيد من البحث والتفصيل والإلمام بالمدارس الثلاثة التي سبق وتكلمنا عليها.

المطلب الثاني: الأنساق المشكلة للبنية في محكي أعمال الرسل:

1- نفس المرجع، ص 19-20، بتصرف.

2- مقدمة قصيرة، مرجع سابق ص 72-73.

والآن نصل إلى الملموس بمصطلح بارت نفسه، والإختبار الحقيقي الإجرائي حول قدرة النظرية البنيوية في تحليل النص المحكي وكشف بنيته ونسيجه، أم أنها ستخرج بنتائج بعيدة عن المتوقع والمأمول لها، ويقول بارت عن هذه الخطوة: "أصل الآن إلى النص، أعمال الرسل10-11، وأخشى أن نصاب بخيبة الأمل لأننا سندخل إلى الملموس، وأن الحصيلة بعد هذه المبادئ الكبرى قد تبدو ضئيلة، لن أحلل النص خطوة خطوة، كما كان يلزمني أن أفعل...أنا باحث، وأقوم ببحث في التحليل البنيوي للسرد، سأجتاز المحكي آية بعد آية، وحدة قرائية بعد وحدة قرائية، وسأقوم بفرز كل المعاني وكل الأنساق الممكنة...سأستخدم محكي أعمال الرسل لعرض ثلاث قضايا بنيوية كبرى، أرى أنها حاضرة في النص"[1]، فبارت يبين طريقته في العمل على هذا النص، فهو بداية متردد من نتائج الدراسة ومدى قدرتها على تحقيق مراده من عدمه، وقد اكد على أن النتائج ستكون ضئيلة، وهذا صحيح، فالقارئ لهذا التحليل سيلحظ نوعا من التذبذب بين ما سقناه من خطوان منهجية سمتها لغموض وثقل المصطلحات وكثرة التفاصيل، ليجد في الأخير بعض النتائج التي لا تزيل كل الإبهام عن عقل الباحث في جهود بارت نحو التقعيد لعلم السرد.

سيجتاز بارت النص آية آية، ويقصد بالآية هنا كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالوحدة القرائية، وسيعمل على كشف النسق في كل منها والذي يشكل توليفتها مع بيان ثلاثة قضايا بنيوية يراها حاضرة في نص أعمال الرسل: قضية الأنساق، نسق الأفعال، نسق اللغة الواصفة، وعملنا في هذا المطلب سيكون محصورا في تتبع أهم الأفكار الرئيسية من خلال تحديد ماهية النسق، والمقصود بالوحدة القرائية، وكيف تعمل على تشكيل بنية للمحكي، ومن آليات الترابط مع التمثيل لذلك بما يخدم طبيعة خطة البحث، وسنعمل على الحديث عن الأنساق والأفعال بتقسيم هذا المطلب إلى فرعين يتناول كليهما على أن نجعل المطلب الثالث خاصا بلغة الوصف بحكم انه نتيجة التحليل.

أولا: قضية الأنساق

علينا قبل البدء في عرض تطبيقات بارت، أن نحدد مفهوم النسق، فهو"فكرة النظام أو النسق الذي يتحكم بعناصر وأجزاء النص مجتمعة، والذي يمكن ان يظهر من خلال شبكة العلاقات العميقة بين المستويات، بمعنى ان الكلمة لا يتحدد معناها إلا بعلاقتها مع عدد من الكلمات، بما سبقها وبما

1- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 35-36.

لحقها" [1]، فالمعاني هي منطلقات انساق واقتباسات من انساق كما يذكر بارت[2]، فبالترابط يتحدد معناها، ثم يشير بعد ذلك أن الأنساق ذات حضور قليل وفقير في نص أعمال الرسل، لكنها ستكون أكثر ثراء إن درس الإنجيل بكامله، وقام بعد ذلك بدراسة الأنساق الموجودة في الفقرات1-2-3 في نص أعمال الرسل، انطلاقا من رؤيته الخاصة، وسنعمل على إيجازها مع محاولة ربطها بما سبق ذكره من خطوات منهجية.

وقد عمل بارت على استخراج الأنساق على النحو الآتي:

وكان في قيصرية رجل اسمه كورنيليوس، ضابط بالفرقة الإيطالية في الجيش..."، فهو أولا قام باعتماد التقطيع النصي للآية في أصلها كما هو دون تدخل منه، فهي عنده وحدة قرائية، ويرى بأنها تحتوي على مجموعة من الأنساق هي:

- نسق سردي: فصيغة"كان"تحيل على افتتاح، و تدل على أهمية افتتاح الخطاب الذي يلزمه مجموعة من الترتيبات القواعد والبحث، لأنه أمر يدل على الخروج من الصمت إلى الكلام، ومن يؤكد بارت على ضرورة واهمية دراسة مفتتحات السرد التي حسبه لم تأخذ حقها من الاهتمام، لأن هنالك ضمنيات متضمنة في هذا الموقع الذي لم يسبق بأي معلومة، أي عما حدث قبل الكلام، فهو يبحث عن الماقبل لأنه يحيل إلى شفرة زمنية.
- نسق مكاني: بعد الإفتتاح ينتقل إلى الحديث المكان والمحدد بـ"... في قيصرية"، ويرى بان النسق المكاني مهمته تقوم حول تنظيم الأمكنة وأنه يؤدي مهمة سدرية لها، وحسب بارت فإنه يوجد تبادل وتعارض بين يافا وقيصرية، فهي شفرة مكانية، تدل على نسق ىخر هو النسق الثقافي، أي ان القارئ حين يصادف هذين المدينتين سيتبادر إلى ذهنه معنى معين، وسيختلف الفهم باختلاف ثقافة القارئ وعصره، ويضرب مثالا آخر من الآية التاسعة يتجلى مراده خلالها بوضوح تام، "صعد بطرس إلى السطح"، فالسطح وظيفي جدا في المحكي، لأنه يبين رفض بطرس وصول مبعوثي كورنيليوس ولهذا نبهه الملاك عبر الرؤيا، وبالتابي تصبح السمة المكانية ذات وظيفة سرية، وهي قضية أساسية في السرد الأدبي، كما أن

1- االنظرية البنيوية بين النشأة والتأسيس، مرجع سابق، ص 14 بتصرف.

2- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 36.

السطح يدل على نسق ثقافي يحيل إلى نمط السكن في ذلك الزمن، وكنتيجة لهذا يحدد بارت ثلاثة أطراف دلالية للسطح هي:

نسق مكاني(السطح) ـــ نسق ثقافي (نمط السكن وهو ذو رمزية معراجية، فكلما ارتفع السطح دل على المعراج)ـــ نسق الأفعال(تدخل الملاك).

ويشير بارت إلى أن هذه الأنساق غير جازمة، وهذا أهم شيئ في المحكي لأنه يحدد إنجاز الراوي، فالسرد الجيد هو الذي لا يقُدر معه على الحكم الجازم بين نسقين، وكأنه هم المتحكم في السرد.[1]

- نسق علمي: وهو نسق أسماء الاعلام والذي لم تبحثه اللسانيات إلا ما كتبه"ياكبسون"و"ليفي ستروس"، ويتحدث فيه عن كورنيليوس، فهو ذو أهمية نظرا لمكانته وأثره في المحكي، أي مدلول هذا الدال وقيمته كشخصية حاضرة في النص ومركزيتها
- نسق تاريخي: ويحتارج إلى تكوين ثقافي لدى القارئ، بمعنى ان يكون ذو خلفية تاريخية حول ما يدور في المحكي من أحداث، ويعتبره هو الآخر نسقا ثقافيا.
- نسق المقومات الدلالية: وهو في اللسانيات حسب بارت يعني وحدة من وحدات المدلول لا الدال، ويسميه بدوال الإيحاء، ويخضع لطريقة القراءة والزاوية التي يحلل بها النص، سواء أكانت سيكولوجية أو بنيوية، وكمثال على ذلك آية"..كان تقيا يخاف الله"، لكن ما يوجد في النص هي قراءة غير القراءة النفسية وإنما تحليل خاضع للتصنيفات الثلاث التي قسم بها بارت نص اعمال الرسل، اليهود/غير المختونين/والذين يخافون الله وسط الشعب اليهودي وهم المعارضون لفكرة الختان لغير اليهود، وبالتالي فإنه ذو قيمة علائقية بسبب تحديدها للعلاقة بين شخصيات الإنجيل.
- نسق بلاغي: لانها تتضمن ترسيمة بلاغية مدلولها هو التقوى، قائمة على الصلاة والإحسان.
- نسق الأفعال: ويتضمن المتواليات التير سنشير إليها في الفرع الثاني.
- نسق زماني: وتوجد في النص منه اقتباسات عديدة، كما انه ذو وظيفة مثله مثل النسق المكاني، بمعنى ان الملاك يقوم بتنظيم رؤيا تزامنية مع كل من بطرس وكورنيليوس ولابد

1- التحليلي النصي، مرجع سابق، ص 24.

من تطابقهما، وهو مهم لدراسة الراوية اهتم به ليفي ستروس كثيرا، واتخذ بارت من الفقرة القائلة"...نحو الساعة الثالثة من النهار"كأنموذج لاستخراج ذلك.

- نسق إقامة الإتصال: وهو من إنتاج"ياكبسون"الذي جعل للغة ستة وظائف ومن بينها وظيفة الإتصال، ومن خلالها يُحافظ على الإتصال بالمخاطب، فهي سمة في اللغة لا مضمون لها كرسالة، بل يلعب دور المناداة مثلما تلعبه كلمة"آلو" عبر الهاتف، فتكرر الرؤيا لثلاث مرات بين الملاك وبطرس، بين الروح وبطرس، هي سمة وظيفتها الإتصال، ويقصد بارت بهذا هو الفقرة التالية: "...فرأى في رؤيا واضحة ملاك الله..."
- نسق رمزي: وهو يتبع الدوال، بمعنى ان النص ينظم على مستوى المحكي والدوال لانتهاك يحلل بعبارات رمزية لجسد بشري، وهما انتهاكين، الأول والمقصود به الطعام، لما أراد بطرس أن السماء مفتوحة في الرؤيا وقطعة قماش كبيرة فيها حيوانات نجسة حسب الشريعة الموسوية، وقد طلب منه الاكل منها، فأنكر معترضا بنجاستها فألح الملاك على الأكل، ففهم أنها بشارة إلى الإنتهاك.الثاني وهو قبول غير المختونين، فالطعام كما يراه بارت في الرؤيا والأكل منه وانتهاكه ذو رمزية تمثل انتهاكا لقانون التمييز بواسطة الختان وقبول غير المختونين في الجماعة المسيحية الأولى، إذ يحتوي على تراتبية منطقية في النص، فالمقايسة أعطت للسرد معناه.
- نسق باطني روحي: وهو النظام الذي نحيل عليه كل السمات التي تنطق بالمعنى الوحيد للنص، فهو لا ينطق بالمعنى الصريح وإنما عبر مجموعة من الإشارات والانساق حين تدرس ككتلة واحدة، تعطينا معناها، هذا الإجمالي من خلال هذا النسق الذي يشير إلى فكرة النص، هو غدماج غير المختونين في الكنيسة الناشئة.
- نسق اللغة الواصفة: وهو أهم الأنساق وآخرها، ويعني اللغة التي تتكلم عن لغة أخرى سيتم شرحه اكثر في المطلب الثالث، فهي الطريقة التي يروي بها الراوي واقعية السرد والمشاهد عبر محمولاته اللغوية وما يسميها بارت بالتلخيصات، ويذكر بأن نص اعمال الرسل يحتوي على أربعة تلخصيات او خمسة، والتلخيص هو مشهد لغوي واصف ينطلق من محكي هو المرجع والمصدر وهي: رؤيا كورنيليوس، رؤيا بطرس، رؤيتاهما كلاهما، سيرة المسيح...إلخ، ويلخصها بارت كالتالي:

- كورنيليوس يخلص رؤياه لبطرس.
- بطرس يلخص رؤياه لكورنيليوس.
- بطرس يلخص الرؤيتان لجماعة أورشليم.
- أخيرا يلخص كورنيليوس سيرة المسيح.[1]

وهكذا يكون بارت قد قطع النص إلى مجموعة من الوحدات القرائية واستخرج منها الأنساق التي خرج من خلالها بنتيجة مفادها أن هنالك تطابقا في المحكي من حيث تسلسل الأحداث وتزامنها، بالإضافة إلى توظيف الرمزية والباطنية لصل إلى فكرته الأساسيو وهي قبول غير المختونين في الجماعة المسيحية الأولى، وأن المسيحية عالمية الرسالة حسب بطرس، إذ يوجد ترابط متبادل، وقد سمح له التقطيع بجرد الانساق الموجودة في النص وبين وظيفة كل منها عبر كشف شفراتها، وقال بوجود تلخيص ولغة واصفة وتناص في النص نؤجل الحديث عنه في المطلب الثالث، فالنص تبدى كنسيج متشابك قائم على جدلية من المترابطات.

ثانيا: نسق الأفعال

وقد أجله بارت نفسه في عنصر مستقل لرؤيته بأنه يكتسي أهمية كبيرة داخل النص من جهة، ولكثرتها من جهة أخرى، وهذا النسق يشير إلى تنظيم الأفعال التي يقوم بها الفاعلون الحاضرون في السرد، والذين تقع عليهم هذه الأفعال، إذ يهتم بما يحدث داخل النص، وتكلم بارت عن اهتمام كل من بروب و ستروس و غريماس به لانتباههم لأهميته فعلموا على دراسته وتوظيفه تحليل نصوص المحكيات ، وهو يقوم على سلسلة من التقابلات التي تكتسي حسب بارت ظاهرا منطقيا[2]، وقد ضرب لذلك الكثير من الأمثلة التوضيحية انطلاقا من نص أعمال الرسل، وسنعمل على بيانه بإيجاز شديد:

- متوالية بسيطة قائمة على نواتين من شكل"سؤال/جواب" : وفي النص تتمثل في "سؤال بطرس للمبعوثين/ جواب المبعوثين"، وتظهر كذلك عند"استفسار لكورنيليوس/جواب كورنيليوس"، ويرى بارت أن هذه المتوالية ذات وظيفة أساسية، وذات أهمية كبرى في تسلسل الأحداث وتتحدد قيمة الأحداث بحسب قيمة الأشخاص.

1- المرجع السابق، ص 42-43، بتصرف

2- المرجع السابق، ص 44-45 بتصرف

- متوالية متطورة: وهي قائمة على عدة أنوية مثل"البحث/الذهاب/الوصول إلى موضع الطلب/الحصول على الطلب/العودة بالمطلوب"، ومن خلالها يتحدث عن ذهاب مبعوثي كورنيليوس للبحث عن بطرس، ويرى بأن هذه العناصر غير ثابتة وقابلة للتغير والإستبدال، فالعودة بالمطلوب على سبيل المثال قد لا تتحقق وتستبدل بعنصر "التخلي/التنازل...إلخ".[1]أي أن المحلل يقوم بعملية التوقع والإحتمال وقد اشرنا إلى ذلك في خطوة سابقة وقلنا بأنها تعبر عن شجاعة من المحلل.

ويحلل بارت هذه المتواليات باعتبار أنها تتشكل انطلاقا من تبعية لبنية"منطقية-زمنية"تتجلى وفق نظام معقد، إذ يمكن لعنصر المتوالية ذاتها أن يفصل بينهما ظهور عناصر تنتسب لمتواليات أخرى، فيحصل التشابك بين المتواليات ويشكل بما يسمى"نسيج النص" أو"جدلية المحكي"، كما أن هنالك متواليات تبسيطية، أي أن تشابكها بسيط بدون تعقيد قائم على التجاوز، وكثال عن ذلك يقوم بارت بتقسيم متوالية "الملاك "ووظيفيته في النص وأفعاله إلى أربعة عناصر هي: "الدخول/الظهور للعين/التبليغ/الإنصراف"و يشير هنا إلى دخول الملاك إلى أحداث المحكي وظهوره لكل من بطرس وكورنيليوس وقيامه بتبليغ الرسالة ثم الإنصراف، ويشير بارت إلى وجود عنصر فرعي وهو عبارة عن متوالية قائمة بذاتها، فعنصر التبليغ على سبيل المثال يشكل اصدار أمر وهو الوصية الإلهية، ويتفكك بدوره إلى خمسة عناصر ثانوية هي: "نداء/طلب/سبب الإختيار/مضمون النداء/تنفيذ"، وبالتالي فهنالك وجود لأمر كلف به الملاك، وتفويض أو انتقال من متوالية أفعال إلى متوالية أفعال أخرى تتضمنها، وكذلك في عنصر الدخول أي دخول بطرس على كورنيليوس، توجد متوالية فرعية هي: "التحية/الرد على التحية"، ففي الرد يتمثل حسب بارت استجابة بطرس للرؤيا وتصديقه لها وتنفيذ الأمر الإلهي بالذهاب إلى كورنيليوس، الذي سجد عند قديمه فأنهضه وأخبره بسبب القدوم وعلى أنه بشر مثله.[2] وهذه المتواليات هي ما يجعل من النص أو المحكي مقروء وذا معنى، وبهذا نكون قد أنهينا الحديث عن الأنساق التي استخرجها بارت من النص معتمدين على الوصف والتحليل حسب رؤية بارت نفسه ودون تدخل منا.

المطلب الثالث: النسق اللغوي الواصف ومشكلة التناص في محكي أعمال الرسل:

1- نفس المرجع، ص 45.

2- نفس المرجع، ص 45-46، بتصرف

النص الواصف هو الإنتاج الجديد الذي ينتجه المحلل بعد الترتيبات وعمليات التحليل التي يقوم بتطبيقها على النص الأصلي، ويعتبر بارت أن هذه القراءة الجديد قد تحررت من الماسلف، فالنص لا يحتوي على معنى وحيد نهائي، فالتحليل ليس اتباعا للمعنى السالف المفروض مسبقا من طرف المؤلف على القارئ، ولهذا فإن دور المحلل هو الإعلان عن موت المؤلف من خلال تفجير الإنغلاق السابق وكشف اشتغال جديد له من خلال البحث في تشابك الأنساق، أي عبر ما يسمى بـ"التناص"، بالبحث عن البنينة، أي عن تفاعل النص المستمر مع النصوص الأخرى التي تتوالد في استمرار وتدل على معان ثانية.[1]

نسعى في هذا المطلب إلى بيان طريقة استخراج معنى ثان للنص وقرائته بعد تحليل نسيجه المتشابك، ولهذا فالمقصود بالنص الواصف هو النتيجة الختامية للتحليل إن صح القول، يقول"صلاح فضل" : " إذا انتهى الناقد من تحليل القصة إلى التقاط بنيتها الأدبية التنظيمية فعليه ان يولي عناية خاصة بالنهاية باعتبارها اللحظة الحاسمة التني ينفك فيها الصراع بين البنية الشكلية من جهة، وبنية الموضوع التي تعكس خواص السياق الاجتماعي من جانب آخر"[2]، وهي المسألة هي آخر ما سيقوم بارت باستنباطه من نص أعمال الرسل، فالنص الواصف عدنه هو لغة تتكلم عن لغة أخرى، أي التلخيص الذي يقوم خطابه على مرجع آخر، ويقسم النص إلى أربعة تلخيصات يراها متناصة فيما بينها، ويضيف إليها نقطة في غاية الأهمية، باعتباره ان التلخيص الأخير يوجد خارج النص لأنه يحيل على كامل الإنجيل، أي يحكي عن سيرة المسيح، وهي كالتالي:

- رؤيا كورنيليوس التي رواها مبعوثوه لبطرس، وكورنيليوس نفسه يلخصها لبطرس.
- رؤيا بطرس التي يلخصها لكورنيليوس.
- الرؤيتان اللتان يلخصهما بطرس لكورنيليوس ولجماعة أورشليم.
- سيرة المسيح كتلخيص أخير، يلخصها بطرس لكورنيليوس ولأصدقائه.[3]

1- المرجع السابق، ص14-15. بتصرف.

2- في النظرية البنائية، مرجع سابق، ص 296.

3- التحليل النصي، مرجع سابق، ص 47 بتصرف.

كيف قام بارت بدراسة هذه التلخيصات الأربعة؟.لقد قام بتقسيم هذا النسق الأخير إلى ثلاثة اقسام هي: التلخيص ، التمطيط، بنية الرسم البياني، وبما أن منهجنا يقوم على الوصف والتحليل فإننا سنعرضها كما أراد لها بارت مع تحليل بغيته من ذلك.

أولا: التلخيص

ويقصد به بارت من ناحية لسانية أنه"اقتباس للمعنى دون اللفظ، اقتباس للمضمون لا للشكل، ملفوظ يحيل على ملفوظ آخر، لكن مرجعه لما لم يعد حرفيا، صار متضمنا لعمل بنينة " [1]، فالتلخيص إذا يقوم على بعملية بنينة للغة سابقة، وهي مُبنينة سلفا لأن مرجعه هو محكي سلفا، فما يلخصه بطرس لجماعة أورشليم معروف سابقا وسماه بارت بـ"المحكي الصفر" ، أي محكي صاحب النص"لوقا"، والمهم في هذا هو وجود فجوة بين المحكي الأول(الصفر) وبين مرجعه وهو الواقع المفترض لمادة السرد، أم أن هنالك نوع ما قبل المحكي هو الواقع المطلق، ثم يكون بعده محكي لوقا(السرد) كأن بارت يشير إلى وجود مخفيات لم يقم لوقا بنقلها في محكيه وأخفى بعض الوقائع، أم نقلها برؤيته الخاصة ، وثم محكي من بعده محكي: 1، 2، 3، 4...إلخ، أي يقوم كل قارئ للوقا بنقل هذا المحكي من بعده برؤيته لكن تاثير على بنية النص الأصلي، وبالتالي يستنتج بارت أن بين محكي اعمال الرسل للوقا وبين الواقع المفترض علاقة نص مع نص آخر، وهي من القضايا المهمة التي تدرس قضية المدولول النهائي: هل يمتلك نص مدلولا نهائيا على نحو ما؟وهل الكشف لكل بينات النص سيوصلنا إلى مدلول نهائي يمثل االواقع؟[2]

ويتكلَّم بارت عن فكرة جاك دريدا القائلة بأنه لا توجد في العالم إلا كتابة كتابة، فكل كتابة تحيل على وجود كتابة أخرى واكتشاف العلامات هو لانهائي، ويرى بأن هذا التأمل الفلسفي مناسب للكتابة المقدسة لأن اللاهوت يفرض وجود مدلول نهائي.[3] وبالتالي لا ينبغي أن يخرج القارئ عن القراءة القبلية والمسومة من طرف الهيئات الدينية وبما يخدم العقيدة الدينية.

ثانيا: التمطيط

1- المرجع لسابق، ص07.

2- نفس المرجع، ص48، بتصرف

3- نفس المرجع، ص49، بتصرف.

ويعني"الحشو"، أي إضافة عناصر إلى المحكي قد تؤثر في بنية الجملة أولا، فمثلا يرى بارت أن نص اعمال الرسل يمتاز بكثافة التلخيصات، وتظهر فيه مسألة بنيوية مهمة لم تنل حظها من الدراسة وهي التمطيط، فهنالك مستويات في المحكي قد تحذف أو تضاف، إلا ان التلخيص يظل ثابتا، فحشو المحكي أي تمطيطه بمعنى إضافة كلمات إلى بنية الجملة أو صفات...إلخ، أو جمل رئيسية أو فرعية، ومع ذلك فلن تتغير بنية الجملة.[1]فالناقل للمحكي الأصلي يمكن ان يضيف عليه بعض المصطلحات دون أن يتأثر معنى وبنية النص الأصلي وهذا هو مفهوم التمطيط لدى بارت، الذي يرى بأن اللغة هي النموذج الإجرائي الذي من خلاله يتم تطبيق هذا الموضوع، لأنها مبنينة وفي نفس الوقت لامتناهية، وهذه نقطة مهمة جدا، فاللغة حسبه تجربة بنية لامتناهية، بمعنى، والجملة خير مثال على ذلك لإمكانية حشوها لانهائيا، وإذا أوقفت الجمل وأقفلتها، فهذا لا يكون إلا لسبب مثل التنفس ، الذاكرة، الإعياء، ...إلخ، لكنه لا يكون بسبب البنية، لأنه لا يوجد قانون بنيوي يجبر الراوي على إقفال الجملة، فبنيويا يمكن فتحها إلى مالا نهاية، وأما عن علاقتها بالتلخيص فيرى أنه يبرهن على أن الحكاية بدون نهاية ويمكن حشوها لانهائيا، من خلال الإضافة أو الحذف، لكن الإشكالية المطروحة: لماذا إذا تم إيقاف الحكاية هنا ى هناك؟ هذه إحدة القضايا الكبرى التي يجب أن يهتم بها التحليل البنيوي للسرد ويتصدى لها.[2] فالمحلل ينبغي أن يبحث عن الأسباب التي جعلت الراوي يقف عند هذه النهاية ولم يختر لها نهاية أخرى، وينبغي أن نشير إلى أن بارت لم يضرب على هذه القضية مثالا من نص أعمال الرسل ، لكنه ضمنيا يدعو إلى البحث في ذلك.

بنية الرسم البياني:

في هذا العنصر يتحدث بارت عن الحركة الكثيفة لمقاصد الخطاب، وبالتالي فإن اختلاف مستويات التلخيصات وتعددها يعني كثرة لمقاصد الخطاب، ونص اعمال الرسل موقع ممتاز لحركة كثيفة لتعدد الخطابات وذويوعها وانتشارها، ويعطي لها تعريفا انطلاقا من أعمال ياكبسون المنتمي للمدرسة الشكلية يقول فيه"الرسم البياني مهم جدا في النشاط اللغوي، لأن اللغة تنتج في كل لحظة أشكالا بيانية، إذ لا يمكنها أن تستنسخ حرفيا حسب محاكاة تامة مضمونا بواسطة شكل، لأنه لا سبيل

1– نفس المرجع، ص49، بتصرف.

2– نفس المرجع، ص 50، بتصرف

إلى مقارنة الشكل اللغوي بالمضمون، لكن ما يمكن أن تفعله اللغة هو إنتاج أشكال رسوم بيانية"[1]، وقد قدم بارت أنموذجا عن ذلك اعتمادا على مستويات التلخيصات الموجودة في النص:

أمر الملاك الموجه إلى كورنيليوس باعتباره:

- أمر يصدر
- أمر تم تنفيذه
- سرد لهذا التنفيذ
- تلخيص لهذا السرد.

وانطلاقا منه يتوالى المتلقون: الملاك يقوم بإبلاغ بطرس وكورنيليوس ـــ بطرس يقوم بإبلاغ كورنيليوس ـــ كورنيليوس يقوم بإبلاغ بطرس ـــ بطرس يقوم بإبلاغ جماعة أورشليم ـــ وأخيرا إلى القارئ.

ومنه يستنتج أن المحرك البنيوي لهذا النص، وهو"الإبلاغ والإرسال"وليس البحث، فأشخاص المحكي ليسوا فاعلي أفعال بل فاعلي إرسال/فاعلي إبلاغ، والنص يعرض ما يسميه هو بـ"بنية رسم بياني"بالقياس إلى مضمونه.[2]

هذه البنية يقول بارت بوجودها في نص اعمال الرسل لوم يتم اختراعها من طرفه، بسبب تعامله مع نص يسميه بالنص التأويلي الباطني الروحي، يقدم معناه بنفسه، ومضمونه يهدف إلى إمكانية تعميد غير المختونين من غير اليهود، والرسم البياني هو تعميم ونشر النص عبر تكثير التلخيصات، أي أن يقوم آخرون برواية وإبلاغ الرسالة والأمر الملاكي عبر تمطيط النص وتكثير التلخيصات مع وجود نص أصلي هو المرجع، فالإبلاع لا محدود ولانهائي، وبالتالي فالمسيحية عالمية الرسالة، وهذا المحكي تجسيد لفكرة الرسم البياني لفكرة اللامحدود.[3]

هذه التلخيصات كما يرى بارت تتحدث عن نفس المشهد وتشكل صورة رسم بياني عن الطابع اللامحدود للنعمة من اجل الخلاص، فموضوع النص إذا هو فكرة الرسالة ذاتها، لكن بالنسبة للتحليل البنيوي، فموضوع النص هو الرسالة من ناحية لسانية، أي طريقة توظيف اللغة والتواصل، وكذلك

1- نفس المرجع، ص51، بتصرف.

2- نفس المرجع، ص51، بتصرف.

3- المرجع السابق، ص52بتصرف.

القيام بالإبلاغ ونشر الخطابات واللغات، ولهذا فمن الناحية البنيوية لا يتلفظ النص بضمون ما يجب على كورنيليوس أن يقوم بطلبه من بطرس، ويظهر هذا في عدم اخبار الملاك له بذلك، أي ما لما يجب عليه إحضار بطرس، والمعنى البنيوي لهذا الفراغ والنقص.فمضمون الخطاب هو ذاته، بمعنى هو التواصل مع بطرس من أجل ضم غير المختونين، لا ما يجب على كورنيليوس أن يطلبه من بطرس، وقبولهم في الجماعة المسيحية وإعلان عالمية الرسالة.[1]

وإلى هنا ينتهي بارت في تحليل نص أعمال الرسل، مستنتجا تلك البنية المشكلة للنص والشفرات التي قام عليها، على أن نقوم بتقييم هذا العمل في المطلب اللاحق وقيمته العلمية والمعرفية والمنهجية.

المطلب الرابع: القيمة العلمية للتحليل البنيوي للسرد"نقد وتقييم":

يسعى هذا المطلب إلى تقييم العمل الذي قام به بارت وتحديد المقصود بالبنيوية في دراسة الكتاب المقدس، وهل تعتبر منهجا في البحث أم مجرد طريقة علمية أم أنها مدرسة ومذهب فكري متكامل المعالم؟ وسنقدم رؤية تقييمة اعتماد ا على المختصين في اللسانيات والدراسات الأدبية، ورؤيتنا الشخصية المتواضعة.

هذا التحليل الذي قام به بارت في الحقيقة هو عبارة عن اختبار لصلابة النظرية في واقع الدراسات النصية، واختبار بارت لبارت نفسه، وقد ذكر بارت أن القارئ سيقرأ بحثه متلهفا للوصول إلى نتيجة اختباره وتحليلاته، وانطلاقا من هذه الزاوية يرى "عبد الكبير الشرقاوي"أن جهود بارت تكتسي من ناحية منهجية أهمية كبيرة جعلها على ثلاث مستويات هي:

- ذات قيمة تاريخية لأنها تؤرخ لمرحلة من نشوء النظرية الأدبية الحديثة وتأسيس مناهج التحليل.
- قيمة منهجية لأن مقياس قيمة أي نظرية من النظريات أو منهج من المنهاج هو في قوتها التفسيرية ونفاذها إلى ظواهر جديدة في النص لم تلاحظ بعد.
- قيمية تعليمية لأن النص هو محور الممارسة في العملية التعليمية في المؤسسات التي تواجه معضلة تحليلها، فتحليل النصوص أساس تعلم الأدب في مختلف تخصصاته، ويضيف بأن

1– نفس المرجع، ص52–53، بتصرف.

طريقة الوحدات القرائية لدى بارت ملائمة في الأغراض التعليمية واستعمالها بالوسائط والأجهزة الحديثة في معالجة النصوص.[1]

لكن ماذا يقول بارت عن عمله؟ سبق وأشرنا إلى انه يشعر بخيب أمل ولا يريد من القارئ ان يعلق آمالا كبيرة على هذا المنهج الذي يراه غير كاملا ولا يعتبر علما.[2] ويعيد التذكير بذلك خلال تعرضه إلى تحليل نص العهد القديم بقوله: "فهو ليس علما بالتأكيد وليس حتى فرعا للمعرفة" [3]، فماذا يريد بارت منا كباحثين أن نصنف هذا العمل؟، وقد وضعنا في حيرة من هذا الأمر.

وعن هدفه من هذا المشروع يؤكد بارت انه لا يهدف إلى عملية النقد لا من الناحية الخارجية التاريخية، ولا من الناحية الداخلية التركيبية، فالتحليل النصي يحاول أن يقول: "لا من أين يأتي النص ولا من حيث تركيبه، ولكن كيف يتفكك ويتفجر...وأي سبل نسقية يتبع، ولاجتناب خيبة الامل، لن يتعلق الأمر...بسجال منهجي بين التحليل البنيوي أو النصي وتفسير الكتاب المقدس، لا أملك كفاءة في هذا المجال" يقول بارت.[4]فهو يعلن بصراحة وشفافية ان عمله لا يقصد منه تفسير النص الديني ولا تحليل مضمونه، بل البحث عن نسق، ومحاولة لتأكيد مبادئ نظرية وترتيبات إجرائية وخطوات منهجية، أي وضع معالم أولية لنظرية جديدة في تحليل النصوص، كما يؤكد على أنها نظرة ذاتية محضة فـ"ما أعرضه هنا ليس خلاصة ولا حتى منهجا"[5]، فهو إلى الصدام مع وجهة النظر اللاهوتي ولا يدعي أن نظريته تفوق في قوتها التفسيرية ما للاهوت من مناهج، وهذا ما نراه شجاعة فكرية وصراحة وموضوعية.

بعد ان أنهى بارت عمله التطبيقي قيم نفسه بنفسه قائلا: " لاشك ان هذه الإشارات ستبدو قاصرة عن بلوغ النص، وعذري في هذا أن هدف البحث ليس شرح النص وتأويله، بل مسائلته من بين نصوص أخرى بهدف تشكيل جديد للغة عامة للسرد، ولما كنت أمام ضرورة الحديث عن نص، ونص واحد، لم أتمكن من الحديث لا عن التحليل البنيوي للسرد عموما ولا بنينة تفصيلية لهذا النص،

1- نفس المرجع، ص6-7.

2- نفس المرجع، ص25، بتصرف.

3- ص 56

4- ص 56-57

5- ص 57

لذا حاولت تسوية مع كل خيبات الأمل التي يمكن ان تتضمنها مثل التسوية القيام بعرض جزئي، ووضع الخطوط الأولى للملف البنيوي للنص، لكن لكي يجد هذا الإنجاز كل معناه، لابد من ضم هذإلى ملفات أخرى، ودمج هذا النص في المتن الهائل من الحكيات" [1]، وفعلا فهذا النص لا يمكن ان يكشف عن كل الخطوات المنهجية وإنما يمكن اعتباره محاولة أولية لاقتحام عالم النصوص الدينية، وقد كتب بارت كتابا بعنوانintroduction a l'analyse structurale des récits سنة 1977، وهو الكتاب المنهجي الذي عرض المبادئ النظرية والمنهجية لعلم السرد وطرق توظيفها وتطبيقها على المحكيات، وقد خضع هذا الكتاب إلى الترجمة العربية لمرتين حسبما وجدنا نظرا لقيمته العلمية، فقد ترجمة"منذر العياشي"بعنوان "مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة"، وهي أحسن ترجمة، في حين اختبار له"أنطوان أبو زيد" عنوان"النقد البنيوي للحكاية"، بينما الموضوع يقصد به التحليل لا النقد، ثم جعل هذا الكتاب الذي اعتمدناه كانموذج للدراسة كتابا تطبيقيا اكثر منه تنظيرا وتقعيدا، وبما أن بارت نفسه قد اعترف بأن هذا العمل غير كامل، فهو يكفينا مهمة الدخول في التفاصيل الطويلة، فهذا عمل مبدئي يسعى إلى ان ينمو ويتطور، ولسنا ندري هل بارت متخوف من سهام النقد التي سيوجهها القراء له بعد تلك التنظيرات المليئة بالمصطلحات المثقلة والمركزة والتي تحتاج قراءة معمقة وثقافة موسعة، لكي يصل في الأخير إلى نتائج قليلة لا تزيل الإبهام ولا الغموض وتترك القارئ مشوش الذهن ومضطربا، ولهذا يتخذ من عدم اكتمال معالم المنهج كحجة يختفي بها من جمهوره.

وبما انه يذكر بأن منهجه في طور الإكتمال ولا يمكن الجزم بأنها منهج أو علم مستقل، نسعى إلى بحث هذه الرؤية من وجهة نظر المختصين حول هذه النظرية، هذا ما يجعلنا نقف مع "ليونارد ياكبسون" الذي يرى بأن المدخل إلى التحليل البنيوي للسرد هو محاولة لوضع استيراتيجية في البحث خاصة بتحليل البنية السردية، وذلك باستخدام نموذج الألسنية كدليل او مرشد.[2]ثم يعلق على هذا المشروع قائلا: " ينبغي ان ينطلق الحكم الأخير على بنيوية بارت، وعلى كل بنيوية تلك الفترة من انها كانت ذات طابع برنامجي، فهي لم تمثل نظرية كاملة، بل برنامجا عقلانيا في البحث، برنامجا لم ينجز بعد.[3]ولسنا نريد ان ندخل في نقاش تاريخي حول انتقال بارت من البنيوية إلى ما بعد البنيوية

1- ص 53

2- بؤس البنيوية ، مرجع سابق، ص 211.

3- نفس المرجع، 213.

وتخليه عنها لأن هذا سيدخلنا في تفاصيل لا تخدم طبيعة موضوعنا ولا هي هدفنا منه.فقط، نشير اعتمدا على ياكبسون دائما على ان ما يفصل البنيوية عن ما بعد البنيويةبكل سهولة من خلال النظر في عملين من اعمال بارت لا تفصل بينهما سوى أربعة أعوام، وهذان العملان هما مدخل إلى التحليل السردي1977م، وكتابه الأشهر س/ز الذي صدر عام 1980م، ... فالكتاب الأول يمثل إخلاصا للطراز القديم من البنيوية، فهو يضع لنفسه استيراتيجية معقولة، ترمي إلى تحليل بنية السرد، باتخاذ الألسنية مرشدا ودليلا، ..أما س/ز فأمره مختلف تماما، ويبدو الإختلاف بين هذين العملين منذ الصفحات الأولى، على الرغم من ان كليهما يتناولان ذات الموضوع وهو كيفية التعامل مع الكم الهائل من المحكيات، ففي الكتاب الأول تتم معاجلة هذا الموضوع على نحو رزين بوصفه واحدة من المصاعب المنهجية التي تجعل من المستحيل أن نتقدم ونواصل من خلال الإستقراء البسيط وتجعل من الضروري إقامة نظرية وتشكيلها، أما في س/ز فالأمر مختلف تماما.[1]

ولا يسعنا الإغراق في الموضوع بما أننا درسنا بارت انطلاقا من التوجه البنيوي الذي كان عليه قبل أن يتحول إلى ما بعد البنيوية.

إن المحاولة البنيوية لفهم الطريقة التي نفهم بها نصًا ما، تقودنا إلى التفكير في الأدب ليس باعتباره تمثيلًا أو تواصلًا، بل كسلسلة من الأشكال تنتجها مؤسسة الأدب والشفرات الخطابية لثقافة ما .إن التحليل البنيوي لا يسعى إلى اكتشاف معانٍ مستترة؛ فالعمل الأدبي أشبه ببصلة، كما يكتب بارت: تركيب من طبقات أو مستويات أو أنساق(، لا يحتوي جسدها، في النهاية، على قلب، أو نواة، أو سِرٍ، أو مبدأ غير قابل للاختزال، لا شيء سوى عدد لا نهائي من الأغلفة، والتي لا تُغلِّف شيئًا سوى وحدة للنص، فالتحليل البنيوي لا ينتج شرحا للنص لكنه ينطلق من رؤية مبدئية لمحتواه، وينخرط في لعبة الشفرات المسئولة عن توليد المعنى لإبراز عناصرها وتصوير تسلسلاتها وأيضًا لاستشراف شفرات أخرى، سوف تظهر من منظور الشفرات الأولى.[2]

والمطلع على جهود بارت في كل الحقول يرى أنه لم يثبت على نظرية واحدة أو رؤية محددة وإنما عرف بالتقلب والتغير ولهذا قمنا بالإشارة فيما سبق على أنه مفكر يصعب حصره في حقل

1- نفس المرجع، ص 217، بتصرف.

2- مقدمة قصيرة جدا، مرجع سابق، ص 74-75.

معرفي محدد، فحتى هذا المشروع الذي تناولناه قد تخلى عنه إلى مشروع آخر رسم معالمه في كتابه س/ز ، واعلن فيه عن ما بعد بنيويته.

ولهذا يمكن إذا الإشادة ببارت باعتباره مؤسس ميادين بحثية، ومناصرًا لمناهج، بيد أن هذا التوصيف يتضح أيضًا أنه غير دقيق نوعًا ما، ففي كل مرة ينبري فيها بارت للدفاع عن جدارة مشروع طموح جديد كعلم للأدب، سيميوطيقا، علم للأساطير المعاصرة، علم للسرد، تاريخ للدلالة الأدبية، علم للتقسيمات، علم لأنماط المتعة النصية فإنه سرعان ما يتجاوزه إلىشيء آخر وإذ يهجر ما كان قد أعطى إشارة انطلاقه، فإنه كثيرًا ما كان يكتب بامتعاضأو باستخفافعن شواغله السابقة .إن بارت مفكر شديد الخصوبة، لكنه يسعى إلى اقتلاع شتلاته بمجرد أن تبدأ في الإنبات، وعندما تبدأ مشروعاته في الازدهار، فإنها تفعل ذلك من دونه ورغمًا عنه.[1]ويقول عنه جوك ستروك: غير أن بارت لم يفعل ذلك عن طريق تشييد موقف نظري محدد خاص به نحو الأدب التزم به بعناد على مر السن بل العكس هو الصحيح فقد اشتهر بسرعة الحركة وبالطريقة التي يتجاوز بها المواقف القديمة باستمرار متجها في كثير من الأحيان وجهات لم تكن في الحسبان، وكل كتاب جديد ينشره هو بشكل واضح تجاوز لأفكاره السابقة وليس تعزيزا لها.[2]

فانتقال بارت إلى منهج جديد في دراسة المحكيات هو إعلان عن فشل منهجه في كتابه المدخل، وهذا ما يقتضي بالضرورة بحثا آخر حول مشروعه الثاني.

خاتمة:

وبعد هذا العرض المطول للمشروع البارتي نحو قراءة جديدة لنصوص الكتاب المقدس وصلنا إلى النتائج التالية:

- مشروع علم السرد هو امتداد لجهود البنيويين السابقين وتطوير لها ولم ينطلق من فراغ، فقد اعتمد بارت على المدارس الثلاثة بالخصوص على مكتشفات دوسوسير الألسنية في علاقة اللغة بالكلام.
- لا يهدف علم السرد نحو تفسير النص وشرحه بل إلى كشف الأنساق التي تؤدي مجموعة من الوظائف داخلة، وإلى كشف النسيج النسي وبنينته.

1- نفس المرجع، ص12.

2- البنيوية وما بعدها، مرجع سابق، ، ص 65.

- لا يدعي بارت قدرة المنهج على تفسير النص ومعانيه الكاملة، ولم يقل بأنه سيتجاوز المناهج اللاهوتية أو هدمها
- التنظير لنظرية موت المؤلف والتأكيد على حضور القارئ وفاعليته.
- عدم اكتمال منهج التحليل البنيوي للسرد، ولا أنه واضح المعالم والخطوات، ولا يمكن اعتباره فرعا معرفيا مستقلا ولا منهج بحث بل مجرد طريقة.
- الإعلان عن موت البنيوية إلى ما بعد البنيوية من خلال تاليف بارت لكتابه س/ز وانتقاله إلى طور معرفي جديد
- عدم القدرة على حصر بارت ضمن نطاق معرفي واضح.
- هذا البحث عبارة عن مدخل نحو نظرية كبيرة ويفتح آفاق مستقبلية للبحث فيه من خلال العودة إلى المرجع الفرنسي السابق الذكر.